الحاجة

الدائمة إلى النقل والترجمة

ما أظن أن هناك خلافاً فى أن الأمم مهما يبلغ مستواها الثقافى، فى حاجة ماسة دائماً إلى الوقوف على الآراء العلمية والأدبية والفنية ومختلف النواحى الثقافية السائدة فى غيرها من الأمم، وتعرف وجهات نظرها واتجاهات تفكيرها سواء فى السياسة أو الاقتصاد أو نظم الاجتماع، والاكتفاء الذاتى فى مسائل الفكر والثقافة بوجه خاص من دواعى التخلف والقصور وبواعث التأخر والجمود، والأمم التى تكتفى بتجاربها الخاصة ولا تحاول الاستفادة من تجارب الإنسانية عامة تضيع الكثير من جهودها عبثاً، والرجل المثقف فى العصر الحاضر لا يستطيع أن يكتفى بالتزود من ثقافة الأمة التى ينتسب إليها وينشأ بين أحضانها، مهما كانت مكانة ثقافتها من الرفعة والسمو والطرافة والأصالة.

وذلك لأن [الثقافة الحقة تقتضى الاطلاع على أحسن الآثار الفكرية والطرائف الأدبية، وقد شاءت الأقدار أن لا تكون الآثار الخالدة والطرف النادرة مقصورة على أمة من الأمم دون الأمم الأخرى، وهناك عدالة فى توزيع المواهب والملكات وتهيئة أسباب النبوغ والعبقرية، ولكل أمة من الأمم مجال سبق وحجة فخار].

ولكن إذا كان معنى سعة الاطلاع وتعميق الثقافة أن يقرأ الإنسان خير المؤلفات وأحسن ما أخرج للناس بلغته الأصلية التى كتب بها، فان هذا معناه استحالة وجود من سمت ثقافته واتسع اطلاعه، وذلك لأن الذى يطلب الثقافة فى هذه الحالة يكون حتما عليه أن يقضى وقتاً طويلا قد لا تتسع له أعمار النسور فى تعلم مختلف اللغات وإجادتها، ليتمكن من قراءة آداب الأمم، التى تعبر بها عن نفسها، ولا نزاع فى أن بعض هذه اللغات طرأت عليها تغييرات جوهرية فى خلال العصور المتوالية، ولا مفر له تلقاء ذلك من معرفة هذه التغييرات ليفهم ما يقرأ ويستوعبه، وعليه فى الوقت نفسه أن

يجمع مع الدراسة القائمة على بذل الجهد الشاق، دراسة أخرى قائمة على انماء حسن التذوق وجودة الاختيار والقدرة على التمييز .

[والرجل الحسن الاطلاع المثقف، ليس هو الرجل الذى التهم الكتب التهاماً وجمع المعلومات الضخمة والمعارف الواسعة، وإنما هو الرجل الذى استطاع أن يقدر ما يقرأ ويزنه ويتذوقه] .

وواضح أن هذه المحاولة محاولة معجزة ينوء بها الجهد البشرى .

والكثير من الكتب القيمة قد كتبت باللغة السنسكريتية واللغة الصينية أو اللغات الهندية أو اللغة اليونانية أو اللاتينية ، وليس فى طاقة كل إنسان أن يقرأها فى لغاتها الأصلية ، وقليل من الناس من أتيحت لهم فرصة تعلم طائفة من اللغات ، واتقان لغة واحدة والإحاطة بأصولها ليس من الأمور الهينة السهلة، فكيف باتقان لغات عدة ، ولم يرزق جميع البشر الاستعداد والقابلية لتعلم اللغات فضلا عن إجادتها والتضلع منها .

فاذا يصنع طالب الثقافة الحقة وسعة الاطلاع فى مثل هذا الموقف ؟ لا مفر له من الاطلاع على الترجمات والاكتفاء بها والتعويل عليها ،ولا نزاع فى أن جانباً كبيراً من جمال الطرائف الأدبية يفقد فى خلال عملية الترجمة ، لأن طرائف الفن والأدب تعتمد إلى حد ما على الأسلوب والصياغة ، ولكل لغة خصائصها ومميزاتها الجمالية التى لا يمكن نقلها إلى لغة أخرى ، ولكن الواقع [أن الكاتب الذى عنده شىء ليقوله، لا يكتفى بالاعتماد على براعة الأسلوب وحسن الأداء، والمادة التى يضمنها أسلوبه قد تغنى عن التوشية والتجميل] .

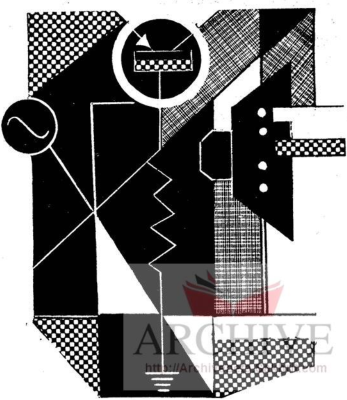
والكثير من المفكرين الممتازين والعلماء الأثبات المتمكنين، لم يرزقوا البيان الناصع والأسلوب البليغ ، واللون من الأدب الذى يعانى ناقله من لغة إلى لغة أخرى صعوبة بالغة هو الشعر ، وما عداه قد يسهل نقله إذا كان له بصر يجنبه الأخطاء وضمير يلزمه تحرى الأمانة .

[ونرى من ذلك أن الحاجة إلى النقل الثقافى، والترابط الفكرى ، والاتصال الروحى ، لازمة للإنسان فى كل زمن ومكان] .

ومنذ عهد الثورة نشطت حركة الترجمة، والنقل وكان فى طليعتها ظهور مشروع الألف كتاب ، وقد ضمن هذا المشروع الكثير من الكتب الجيدة فى مختلف الآداب الأوربية،وشاركت الدار المصرية للتأليف والترجمة ، والدار القومية ، مشاركة محمودة فى هذه الناحية ، ولكن حركة الترجمة مع ذلك ما تزال فى حاجة إلى الكثير من الجهد والتنظيم ، وكثير من المؤلفات القيمة فى الآداب القديمة والآداب الحديثة والنواحى الفكرية والعلمية المختلفة،لم تنقل بعد إلى اللغة العربية،وما تزال أمامنا مرحلة طويلة لتحقيق هذه الغاية،وهى لازمة لملاحقة ركب الحضارة وتوسيع نطاق الثقافة .

بقلم
على أدهم

الترانزستور.. كيف تشغله بيديك ؟



الناشر : مكتبة النهضة العربية • ٢٨٤ صفحة ١٧×٢٤ سم • الثمن ٤٠ قرشا

يعتبر الترانزستور من أروع ما ابتكر فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، على الرغم من أن أصوله ترجع إلى أول عهد الراديو . ففى عام ١٩٠٤ اكتشف الأستاذ فلمنج أن الأنبوبة المفرغة ذات الإلكترونين ، أحدهما مسخن والثانى بارد ، يمكنها أن تعمل عمل كاشف لموجات اللاسلكى المترددة ، لأنها تسمح لهذه الموجات بالمرور فى اتجاه واحد فقط مع الإلكترونات التى تنبعث من الإلكترون الساخن . وأطلق فلمنج على هذه الأنبوبة اسم (الصمام الترميونى) . وفى ذلك الحين كان من المعروف أيضاً أن بلورة من كبريتيد الرصاص ، الجالينا ، تعمل على تقويم إشارات اللاسلكى القادمة

تأليف: محمد البارودى
محمد أبو الفضل

عن طريق تحويل الموجات الكهرو مغنطيسية المترددة إلى تيار مستمر يمكنه أن يشغل سماعات الراديو . وكان الاعتقاد السائد وقتئذ أن الكاشف البلورى لا يصلح لشىء ، فلم يوجه العلماء إليه الاهتمام الكافى وتوقفت تقريباً البحوث الخاصة به حيث لاح أن الصمام الثرميونى أعلى منه كفاية فى استكشاف إشارات اللاسلكى وتضخيمها .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، اهتم العلماء بالبحث عن بديلات للصمامات الثرميونيــة السهلة الكسر والتى تتطلب تياراً كهربياً عالى الجهد لتسخين الكاثود . فاهتموا من جديد بالبلورات الكاشفة التى ثبتت فائدتها الكبيرة فتقدمت بخطى سريعة لتحتل مكانة الصمامات ، بحيث يسود الاعتقاد الآن أن الصمامات سيبطل استعمالها نهائياً وتأخذ مكانها فى المتاحف العلمية مع مكثف آنية ليدن وغيره من الأجهزة القديمة التى بطل استعمالها لاكتشاف أدوات وأجهزة أحسن منها وأفضل .

ويرجع السبب فى سيطرة الترانزستور على الصمام الثرميونى إلى أنه يؤدى وظيفة هذا الصمام وهى التحكم فى الإلكترونات ، ومع ذلك فهو يمتاز عليه بصغر حجمه ، ومتانته الكبيرة ، وخلوه من الضوضاء التى تنشأ من الحركة الميكانيكية لأجزاء الصمام ، وانخفاض ثمنه ، واحتياجه إلى قدرة كهربية ضئيلة لتشغيله . ومن المعروف أن جهاز الراديو الذى يحتوى على مكبر صوت وبضعــة ترانزستورات بدلا من الصمامات يمكنه العمل عدة شهور ببطارية مصباح جيب .

[ويتكون الجزء الأساسى للترانزستور من بلورة مصنوعة من الجيرمانيوم أو السليكون ، بحيث تتحول هذه البلورة إلى « حلبة سباق » مصغرة للإلكترونات إذا احتوت البلورة على نوع معين من الشوائب] .

مثال ذلك إذا حقنت إشارة لاسلكى مليون إلكترون داخل البلورة ، فان خمسين مليون إلكترون تبدأ فى السريان داخلها فى نطاق دائرة مغلقة ، وبهذا يحدث التكبير أو التضخيم المطلوب بأدنى قدرة كهربية .

وكان من أوائل التطبيقات العملية للترانزستور استعماله فى بعض الأجهزة مثل مساعدات السمع ، والآلات الحاسبة ، والراديو النقالى المعروف ، وأجهزة التليفزيون ، وجميع أجهزة الطيران الإلكترونية بما فيها أجهزة قياس المسافات المستعملة

فى الأقمار الصناعية . وتنتج الآن « سماعة » توضع داخل الأذن تزن بجميع محتوياتها ، بما فى ذلك البطارية ، ½ أوقية . كذلك فان استعمال الصمامات الثرمونية فى الآلات الحاسبة يجعل هذه الآلات ضخمة الحجم ، علاوة على تسخن هذه الصمامات واحتراق فتائلها . فى حين أنتجت إحدى الشركات آلة حاسبة يستخدم فيها الترانزستور بدلا من الصمامات ، وتحتوى على حوالى ٨٠٠ ترانزستور ، ومع ذلك فان حجمها أقل من حجم صندوق صغير ويلزم لتشغيلها ١٠٠ وات بدلا من ٢٠٠٠ وات تلزم لتشغيل آلة حاسبة مماثلة تستخدم فيها الصمامات الثرميونية .

[وفائدة عظيمة أخرى للترانزستور ، هى إمكان إدخاله وتركيبه بسهولة فى الدوائر (المطبوعة) ، وهو ابتكار هام جديد فى صناعة أجهزة الاستقبال ، إذ يمكن بوساطته الاستغناء عن العمليات المعقدة والمتعبة لتوصيل الأسلاك ولحامها يدوياً ، والاستعاضة عنها بتجميع الأجزاء الصغيرة جداً وتثبيتها فى مواضيعها دون أى لحام] .

ولقد كان هدف مؤلفى هذا الكتاب تقديم معلومات فنية مشوقة عن الترانزستور إلى القراء العرب غير المتخصصين ممن تستهويهم طرافة الموضوع ، أو يودون الوقوف على كيفية تركيب أجهزتهم التى يستعملونها ، أو إلى الطلاب وغيرهم من الهواة الذين يتحمسون لتركيب الأجهزة ويسعدهم سماعها بعد ذلك ، علاوة على فريق من العمال المهرة الأذكياء الذين يعملون فى إصلاح أجهزة الراديو وأجهزة التسجيل وما إليها ويودون الإلمام بتفاصيل أجهزة الترانزستور لما لها من سوق مرموقة فى مجال صيانتها وإصلاحها .

وكان لا بد أن يمهد المؤلفان لموضوعهما باعطاء فكرة سريعة مبسطة عن النظريات والمبادئ الأولية لبعض الموضوعات الكهربية والمغنطيسية وتركيب الذرة ، التى تلزم لتفهم نظرية الترانزستور ومتابعة تفاصيله الأساسية . وخيراً فعلا بتخصيص الباب الثانى لذلك . فهو يقدم بين يدى القارئ مبادئ فى الكهرباء واللاسلكى ، بادئين بشرح المجال المغنطيسى والمجال الكهربى والمجال الكهرومغنطيسى ثم المواد الموصلة والعازلة وشبه الموصلة ، وخواص التيار الكهربى ، والموجات الكهربية البسيطة والمركبة وبعض المعدات الأساسية المستعملة فى صناعة الترانزستور .

وأردف الباب الثانى بباب ثالث عن الموجات اللاسلكية ، فتناولا أنواعها ، وانعكاسها ، مع شرح للطبقات المتأينة الموجودة حول الكرة الأرضية وشروط انعكاس الموجات اللاسلكية عليها ، كما خصصا الباب الرابع لشرح الصمامات الإلكترونية وهى التى بدأ الترانزستور فى زحزحتها عن مكانتها ليحل محلها ويعمل عملها . وكان طبيعياً أن يعالج المؤلفان موضوع الموجات اللاسلكية والأنابيب الالكترونية لتسهل مقارنتها الوظيفية مع الأداء الوظيفى للترانزستور .

* * *

ولفهم الترانزستور فى حد ذاته لا بد من تفهم موضوعين أساسيين هما أشباه الموصلات (أو أنصاف الموصلات) وبلورة عنصر الجرمانيوم .

والمواد شبه الموصلة وسط بين المواد الموصلة للكهرباء وبين المواد العازلة لها . ففى حين تتركب الموصلات من ذرات يوجد فى مداراتها الخارجية الكترونات حرة غير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمكونات الذرة المختلفة ، فتندفع من الطرف السالب إلى الطرف الموجب عند توصيل جهد كهربى بينهما ، وفى حين تتصل الإلكترونات الموجودة فى المدارات

ثنائى الأقطاب المتلاصقة» . ونوع آخر من البلورات الموحدة يتكون من سلك دقيق من البلاتين أو التنجستن يلامس بلورة من الجيرمانيوم من النوع السالب ، ويسمى هذا الموحد (ثنائى الأقطاب ذا نقطة التلامس) .

وإذا فرضنا وجود بلورة مفردة من الجيرمانيوم تحتوى على ثلاث مناطق قد وضعت فيها كميات محـــدودة من الشوائب بحيث تكون المنطقتـــان الخارجيتان محتوتين على الزرنيخ (أى أنهما من النوع السالب) والمنطقة الوسطى تحتوى عـــلى البورون (أى أنها من النوع الموجب) ، فاننا نحصل على التركيب الذى يطلق عليه اسم الترانزستور ذى الأقطاب السالبة – الموجبة – السالبة . كذلك يتركب الترانزستور ذو الأقطاب المتلاصقة الموجبة – السالبة – الموجبة من جزء من بلورة مفردة قد أضيفت إليها كميات مناسبة من الشوائب (الزرنيخ والبورون) بحيث تتكون فى هذه البلورة منطقتان من النوع الموجب تفصلهما منطقة من النوع السالب والفكرة الأساسية فى هذين النوعين هى استغلال الخواص التى فى سطح التصاق بلورتين من نوعين مختلفين لمادة شبه موصلة . ولكى يؤدى الترانزستور عمله لا بد أن يكون أحد سطحى الالتصاق موصلا بمصدر كهربى فى اتجاه التوصيل ، وسطح الالتصاق الآخر موصلا بمصدر كهربى فى الاتجاه العكسى . ويلاحظ أن توصيل سطحى الالتصاق بمصدر التيار الكهربى فى كلا الاتجاهين يكون بالنسبة للجزء الأوسط من البلورة ، وهو الذى يسمى (القاعدة) . والجزء من البلورة الذى يوصل بمصدر الكهربية فى اتجاه التوصيل بالنسبة للقاعدة يسمى (الطرف الباعث) ، فى حين يسمى الجزء من البلورة الذى يوصل بمصدر الكهربية فى الاتجاه العكسى بالنسبة للقاعدة (الطرف المجمع) . وفى حالة الترانزستور ذى نقطتى التلامس تستغل الخواص التى فى موضع تلامس طرف سلك من مادة موصلة مع سطح مادة شبه موصلة .

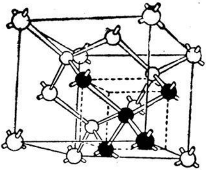
هذا عرض موجز للنظرية التى تقوم عليها فكرة عمل الترانزستور ، يعرضها الكتاب عرضاً مبسطاً ميسراً مصحوباً بالأشكال التوضيحية ، مما يمكن القارئ الجاد من استيعابها والانتقال إلى الطرق الصناعية لعمل الترانزستور وأنواعه المختلفة .

ونستطيع القول أن هذا العرض النظرى يمثل القسم الأول من الكتاب ، فاذا كان القسم الثانى ، وهو الذى يبدأ بالباب الثامن ، عرض السيدان المؤلفان الخطوات العملية لصناعة الترانزستور فى المنزل وطرق اختباره ، والدوائر العملية التى يدخل الترانزستور فى تركيبها ، وصيانة وإصلاح أجهزة راديو الترانزستور .

• • •

[وصناعة الترانزستور فى المنزل سهلة ومشوقة فى الواقع . ويمكن بشىء من العناية والصبر صنع ترانزستور من النوع ذى نقطتى التلامس يوصل فى دوائر تجريبية عديدة] .

ويوضح الكتاب الأدوات والمعدات اللازمة



لذلك ، وأماكن الحصول عليها مع بيان واف لخطوات العمل حتى يتم تركيب الترانزستور واختبار صلاحيته .

وجهد السيدين المؤلفين فى وضع هذا الكتاب واضح وملموس . ويكفيهما فخراً أنه أول كتاب عربى جاد يرتاد عالم الترانزستور ، ويبسطه للناشئين والأفراد غير المتخصصين ، ويعالج جوانبه النظرية والعملية بكيفية توضح أداءه ووظيفة كل قطعة فيه وعلاقتها بالأجزاء الأخرى .

وليس من شك فى أن الكتاب يسد فراغاً كبيراً فى تبسيط العلوم، حتى لا تظل أدوات مستغلقة غير مفهومة وسراً يحيط به الغموض يستأثر به فريق دون فريق من الناس . ونحن نعتقد أن بث الهوايات فى نفوس الناشئين من ألزم لوازم نهضتنا الكبرى ، وعليها يعول فى تربية جيل من الشباب يسير قدماً فى طريق العلم والاختراع والابتكار .

ومن المشاهد أن الدول المتقدمة تقدم لأبنائها كتباً علمية تصلح لجميع الأعمار والعقليات . وهى تبوب هذه الكتب ، فمنها ما يصلح للأطفال ، ومنها ما يناسب الصبية ، ومنها ما يخاطب الفتيان ، علاوة على الكتب التى تؤلف خاصة للفنيين ممن لا يحصلون على درجات علمية عالية ، وإن كانوا يتحرقون شوقاً لاستكمال معلوماتهم عن التخصصات التى اختاروها مهناً لحياتهم وكسب عيشهم .

ولا نكون عادلين إذا طالبنا السيدين المؤلفين بأكثر مما قدماه من جهد صادق وعمل مخلص . ولكننا كنا نود صادقين لو أتقنا تبويب الكتاب ، وقدما له بمقدمة تاريخية أغزر علماً وأوفر مادة . كما كنا نود أن نطالع فى صفحات الكتاب الأولى تعريفاً أوفى باستخدامات الترانزستور ومجالات تطبيقاته فى المجالات الصناعية المختلفة . والكتاب إذ يقدم إلى الناشئين وغير المتخصصين ، يستلزم أن يكون التمهيد إلى موضوعه مشوقاً جذاباً . وليس أجدى فى ذلك من عرض التسلسل التاريخى وبيان الاستعمالات العملية للترانزستور حتى ينتقل القارئ فى يسر وشوق إلى النواحى الأكثر تعقيداً وجفافاً . ولقد قال السيدان المؤلفان فى مقدمة الكتاب « ليس الغرض من هذه المحاولة أن نخرج كتاباً مدرسياً ، ولكنه كتاب للقراء العابرين الذين لم تتح لهم فرصة دراسة الموضوعات الكهربية والإلكترونية . فهؤلاء هم الذين نريد — فى هذا الوطن العربى الكبير — أن نعنى بهم ونكتب لهم » . ولقد وقفنا لحظات نتأمل فى هذه الاستعاذة من أن يكون الكتاب (كتاباً مدرسياً) ، ينطق بها أستاذان فاضلان يعملان فى التعليم الثانوى ، فرحمنا أبناءنا من الكتب المدرسية التى يشقون بها فى معاهد الدرس ويبتلون بآثارها إلى آخر العمر .

ونقطة أخيرة نرجو من الأستاذين الفاضلين مراعاتها فى الطبعات التالية . وهى : [إلحاق قائمة بالمصطلحات الفنية الواردة فى الكتاب ، وتضمينها كشافاً تحليلياً ييسر الرجوع إلى موضوعاته ومفرداته المختلفة . وهذا رجاء عام نسوقه إلى القائمين بالنشر الفنى فى دولتنا الناهضة . فلقد آن الأوان لنعطى الفهارس والمصطلحات الفنية حقها من الاهتمام فى كل كتاب علمى ينشر ليقرر فى المدارس أو يقدم للقراءة العامة] .

ومثل هذا العمل يلقى عبئاً إضافياً على المؤلفين والمترجمين . فهلا بحث المسئولون فى إتاحة الجزاء الموفور لهم مقابل ذلك ، أو لعلنا نطمع فى تكوين متخصصين يعملون فى إدارات النشر للاضطلاع بهذه المسئولية التى تتطلب التدريب والتشجيع من جانب الدولة ، وتتطلب الأمانة والدقة من جانب من يوكل إليهم مثل هذا العمل الحيوى الهام .

الدكتور المهندس أنور عبد الواحد

النظرية السياسية

تقوم النظم السياسية فى الواقع العملى قبل أن تقوم فى الفكر السياسى وقبل أن تغدو نظرية متكاملة وتتعدد إلى مذاهب سياسية مختلفة أو صور مذهبية يتوافق فيها الشكل ويختلف المضمون أحياناً إلى درجة التناقض ، كالاشتراكية الحديثة التى بلغت من الاختلاف فى التطبيق حد التناقض حتى لتبدو كل صورة من صورها مذهباً مستقلا بذاته يكاد ينفصل عن جذوره الأولى تماماً وإن بقى مضمون النظرية سليما ، فالتفسير ما زال هو الميدان الفسيح الذى يسبح فيه الفكر منطلقاً بالاستقراء والتحليل إلى آفاق جديدة .

وقد تنبع النظرية السياسية من الواقع الفعلى للمجتمع الذى يخوض معركة الحق والمصير ضد النظام السياسى للدولة ، فالمجتمع الفرنسى كان يخوض معركة فكرية رادهـا فولتـير وروسو ومونتسكيو قبل أن يقوم بتقويض النظام القديم ليعلى مبادئ الثورة : الحرية والأخاء والمساواة . وكانت هذه المبادئ ذاتها صدى عميقاً للفكر الفرنسى قبل الثورة .

[فالسياسة لا تنشأ إلا بنشأة المجتمعات الإنسانية ، ولكنها لا تغدو علماً له أصوله وقواعده إلا بقيام الدولة ، ففلاسفة الإغريق على ما يعرف هم أول من ابتدع للسياسة نظرياتها المعروفة وإن كنا نرى بوادر للفكر السياسى تنشأ فى مصر والصين وبابل ، وإن كانت لا ترق إلى مستوى النظرية السياسية التى ابتدعها فلاسفة الإغريق] ، إلا أنها تمثل صوراً باهرة من الحكم الذى يسوس أمور النـاس ويرعى شئونهم ويربط الدولة بنظام محكم من التقنين ، وأحياناً تمثل نظرية سياسية لها فلسفتها الخاصة كما نراها فى كتاب « الدو - ده - جنج » أى « الطريقة والفضيلة » للحكيم الصينى « لو - دزه » الذى عاش فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وسواء سبقت النظرية الواقع ، أو كان الواقع هو الأساس الفعلى للنظرية كما كانت النازيةفى ألمانيا والفاشية فى إيطاليا ، فإن النظرية تبقى قائمة لتوحى

ترجمة : عبد الرحمن صدقى أبو طالب
مراجعة : علـى أدهـم
الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
الثمن : ١١ قرشا

تأليف
ا . م . جود

الحديثة

بصور جديدة للتطبيق يكون واقع المجتمع الفعلى هو الحافز لها على التطوير والتغيير المنشود .

وفى كتابنا هذا « النظرية السياسية الحديثة » تبدو كلمة « حديثة » Modern قلقة مبهمة . فهل هناك نظرية سياسية حديثة تصدى لها « جود » بالشرح والتحليل ، أم أنه يقصد بكلمة حديثة نتاج العصر الحديث من نظريات سياسية للدولة ونظم الحكم ، فإن كان يقصد هذا ، فإننا لا نعلم أن الديمقراطية بفرديتها والاشتراكية بطابعها الجماعى نظريتان حديثتان، إلا إذا كنا نقصد أشكال الديمقراطية والاشتراكية التى تعددت وتباينت وفقاً لحاجات المجتمعات الحديثة من التطور والتغيير .

ويبدو أن هذا هو ما يبغيه « جود » ويرمى إليه، فقد أشار فى حديثه عن الفردية أنه لا يبغى تقديم « بيان عن الفردية فى العصر الفيكتورى » وإن دعت الحاجة فى نفس الوقت إلى « أن يرسم باختصار حدود الملامح الرئيسية للفردية فى القرن التاسع عشر ، حتى يمكن أن نرى الفردية الحديثة فى صورتها الحقيقية ، وأن نثبت شرعية نسبها للنظرية القديمة » .

ويكون ما يبغيه « جود » هو إعطاء صورة للشكل الحديث للنظرية السياسية وليس نظرية « سياسية حديثة » كما يبدو من عنوان الكتاب ، ويكون موضوع الكتاب هو النظرية السياسية ، وتطبيقاتها فى المجتمع الحديث .

وعلينا بعد ذلك أن نتبين الحافز الذى ينبع فى ذهن المؤلف فيحمله على اتخاذ موقف معين من الصورة التى يناقشها فى إطار النظرية العامة ، أو يحمله على التجرد من ذاتيته مكتفياً برسم ملامح الصورة كما هى فى الواقع السياسى والاجتماعى للدولة ، وهو ما أراده المؤلف فعلا وأفصح عنه فى مقدمته للكتاب ، إذ يقول إن « النظرية السياسية الحديثة » تختلط فى الأذهان اختلاطاً شديداً ، والخلاف حاد حول طابعها والطريقة المناسبة لعلاجها

مما حمله على شرحها ومناقشتها بطريقة لا تقتضى لفهمها « معرفة سابقة بالموضوع » . وخص الاشتراكية — كما يقول — بحز أوفى ، لا احتقاراً منه للنظرية المثالية أو الفردية ، ولكن لأن الاشتراكية هى التى تستحوذ على التفكير السياسى فى عالم اليوم ، وما كتب عنها لا يمثل غير نظرة المؤيدين لها أو المتحاملين عليها . هذا فضلا عما تتركه تلك الصور الجديدة للنظرية السياسية من أثر « فى قوى الدولة ووظائفها » ، يتنبأ بأنه سيزداد قوة فى المستقبل ، وعلى ذلك يصبح من الأهمية « لمن يكتب مقدمة للنظرية السياسية الحديثة أن يشرح هذه التطورات بشىء من التفصيل » .

ويبدأ المؤلف بشرح النظرية المثالية أو المطلقة للدولة وهى النظرية التى سادت — كما يقول — الفكر السياسى الإنجليزى إلى عهد قريب ، وإن أخذت تتعرض للنقد الجاد فى السنوات الأخيرة ، لما تمنحه الدولة من تأييد وخاصة فى وقت الحرب ، مما حمل الكثيرين على البحث عن بديل لها فى نظام آخر لا يجعل للحكومة تلك « القدرة المطلقة » .

[وتقوم النظرية المطلقة للدولة على افتراض أن إرادتها تمثل الإرادة العامة للأفراد أو خير ما تمثله إرادة الفرد التى تتوافق مع إرادة الآخرين ، وهى بذلك على حق ما دامت تصدر عن الإرادة العامة التى يتجسم فيها أسمى ما يسعى إليه فكر الفرد ، وأن شخصيتها ، وهى فرد فى حقيقتها ، يمكن أن تعد غاية فى ذاتها ، لها حقوقها التى تعلو على ما يمكن أن نطلق عليه تجاوزاً حق الفرد ، إذ لا يمكن أن يكون للفرد من حق فى الواقع يناقض حق الدولة] .

فالحق الواقعى للفرد هو حقه بصفته عضواً فى مجتمع يكتمل فى إطاره نموه الاجتماعى وتتحدد فيه مطالبه وغاياته الحقيقية ، وما دام الفرد يتلقى حقوقه من الدولة ، فليس له من حق فى هذا يناقض حق الدولة أو ينازعها فيه .

والدولة فى نظر « هيجل » أو فى مفهوم النظرية المثالية « مضمون أخلاقى يشعر بنفسه وشخص يعرف ذاته ويحققها » .

وما دامت الدولة لا تتصرف بغير الصفة التمثيلية فإن كل ما يصدر عنها يعبر فى الواقع عن الإرادة الحقيقية للفرد ، فالشرطى الذى يقبض على اللص والقاضى الذى يسجنه يعبران تماماً عن إرادة اللص فى أن يقبض عليه وأن يسجن ، واللص فى هذا لا يجرد من حريته الحقيقية ، وهى غير الحرية التجريدية التى يتمتع بها منعزلا فى غير مجتمع ينتسب إليه ، ولا تكتمل هذه الحرية الحقيقية إلا بطاعة القانون .

والدولة فى ذاتها جزء متمم لشخصية الفرد ، إرادته بعض إرادتها حتى فى تمرده عليها — كما يرى « بوزانكيه » — إذ لا يتمرد وفقاً لإرادة خارجية وإنما بارادة الدولة ، وليست الدولة فى هذا إلا كلا منقسما على نفسه .

وكما تعلو شخصية الدولة شخصية الأفراد الذين يندمجون فى كيانها العام ، فان العلاقات الأخلاقية بين كل فرد وآخر هى بالتالى جزء من الأخلاق الاجتماعية للدولة تندمج فيها وتتضاءل دونها ، مع أن الدولة ليست فى ذاتها أخلاقية أو ترتبط بعلاقات أخلاقية فى أعمالها ، إذ لا يمكن أن تكون هناك طائفة أخرى بجانب الدولة تقتضى قيام علاقات أخلاقية ، ويستشهد جود على هذا برأى « بوزانكيه » فى أن « الدولة ليست لها وظيفة محددة Determinate فى مجتمع أكبر ، ولكنها هى فى ذاتها المجتمع الأكبر هى الحارس لعالم كامل ، وليست عاملا داخل عالم أخلاقى منظم . . . فمن العسير أن نرى كيف ترتكب الدولة جريمة القتل أو السرقة بالمعنى الأخلاقى السائد ، فالدولة المطلقة تمارس نظرياً فى كل وقت وعملياً فى وقت الحرب ، كما تمارس قانوناً السلطة الكاملة على أرواح مواطنيها ، وتستمد سلطتها فى هذا من الإرادة العامة لأولئك الذين يطيعونها حتى وإن أطاعوها كارهين ، فللدولة — كما يقول « بوزانكيه » — أن « تطلب إلى مواطنيها أن يضعوا أرواحهم تحت تصرفها عند الحاجة ، وهى التى

تحدد دستورياً هذه الحاجة ، ويرى « هيجل » أن القدرة المطلقة للدولة فى فرديتها لا تبرز كاملة إلا فى حالة الحرب ، فالأمة والوطن عندئذ هما القوة التى تحكم بالغاء استقلال الأفراد » .

إلا أن من المفكرين من يرى أن للفرد مع حقوقه الأخرى ، « حق الحياة » ، وهو الحق الذى تهدده سلطة الدولة المطلقة فى حالة الحرب ، ويحاول « ت . هـ . جرين » أن يثبت أن الحرب قد تكون نسبياً على حق ولكنها ليست على حق بصفة مطلقة ، ولكنه لم يبين كيف يتسنى للفرد أن يحكم على حرب ما بأنها ليست على حق نسبياً ، وما هو المدى الذى تصل إليه سلطة الدولة فى انتهاك حق الحياة لفرد يرى أن الحرب ليست نسبياً على حق .

ومهما يكن من أوجه النقد أو التفسير لنظرية الدولة المطلقة فإنها فى نظر معتنقيها هى التى تعد وحدها دولة فى الواقع والحق ، وبقدر ما تنقص الدول عنها لا تعد دولا .

وحتى تكتمل الصورة فى نظر القارئ لم يقف « جود » عند شرح النظرية ، بل ثنى بالنقد الذى يوجه إليها سواء من الناحية النظرية أو الناحية العملية .

[فن الناحية النظرية يرى الخطأ واضحاً فى افتراض مطابقة الدولة للمجتمع الإنسانى بكل أفراده] .

فإذا سلمنا بادعاء الدولة القدرة المطلقة على مواطنيها ، فإننا يجب أن نسلم بأن إرادتها تمثل إرادة كل فرد من أفرادها وتسمو عليها ، ولكننا لا نستطيع أن نفترض بأن الدولة تمثل إرادة الأفراد فى دول أخرى ، وهى بذلك ليست كاملة القدرة بالنسبة لهم وينتفى بهذا تبرير التحرر من الالتزامات الأخلاقية ، ولا يصبح للدولة الحق فى تصرف غير أخلاقى أكثر مما لأية جمعية — غير الدولة — فى تعاملها فى الجمعيات المماثلة .

فاذا كان المبدأ الأخلاقى هو الذى يحكم العلاقة بين فرد وآخر كما يحكم العلاقة بين مجموعة من الأفراد ومجموعة أخرى فلماذا يعسر على الدولة أن تتقبل هذا الحكم ؟

وإذا كان الكيان الاجتماعى للفرد هو الذى يغذى طبيعته وينميها فهل يقتضى ذلك أن يسلم بالقدرة المطلقة للدولة ؟

فاذا كانت الدولة قد وجدت من أجل الأفراد ورفاهية المجتمع ، وإذا كانت الحرية لا معنى لها إلا للفرد ، والدولة التى تهدم حق الفرد فى سبيل وجودها لا معنى لها ولا جدوى من قيامها ، فليست الدولة أو المجتمع غاية فى ذاتهما ولكن من أجـل الفرد ورخائه وحريته ، وليس لشخصية الدولة إذن أن تتضمن شخصية الفرد وتحتويها فى ذاتها أو تسمو عليها ، وليس هناك ما يقتضى التسليم بقدرتها المطلقة ما دامت إرادة الدولة ، حتى فى طغيانها ، هى إرادة الأفراد الذين هم ضحايا هذا الطغيان ، وما دامت رفاهية الدولة هى رفاهية الفرد .

[فالنظرية المطلقة للدولة ضارة بالحرية الفردية ، فحيثما يوجد نزاع بين الفرد والدولة لا مفر من الأخذ بالرأى القائل بأن الدولة دائماً على حق] .

وليست المشكلة فى مدى موافقة إرادة الفرد لإرادة الدولة أو مخالفته لها وليست فى تحقيق التوازن بين مطالب الفرد ومطالب المجتمع المخالفة لها ، وإنما هى فى تقرير النظام الذى يحقق للفرد أعظم قدر من الحرية الشخصية .

[وأما الاعتبارات العملية فى الاعتراض على نظرية الدولة المطلقة فيرى المؤلف أنها تنبع من طبيعة تطور العلاقات الاقتصادية والأخلاقية فى المجتمع الإنسانى] .

فقد تميز نصف القرن الأخير بالزيادة الهائلة فى عدد الجمعيات التى تكونت لأغراض اقتصادية أو لأخرى أخلاقية ، فن الناحية الاقتصادية يقوم نوع من الترابط العضوى فى المجتمع الإنسانى رغم انقسامه سياسياً ، هذا الترابط العضوى الذى تزعم النظرية المثالية أنه روح الدولة من الناحية السياسية بمعنى أن رفاهية أى جزء منها يعتمد على رفاهية الأجزاء الأخرى ، ويستشهد برأى « نورمان انجيل » فيما ذهب إليه من أن الرباط الاقتصادى القائم على الاهتمام بجمع المال قد أخذ يحل محل الرباط القومى القديم ، مما ينبئ بقيام المجتمع على أساس اقتصادى بدلا من قيامه على أساس جغرافى .

ولا تختلف الجمعيات التى تكونت لأغراض أخلاقية عن تلك التى تكونت لأغراض اقتصادية، فلم تعد الحياة الصالحة مما ترسمه الدولة ولم تعد أنماط الحياة الصالحة وقفاً على آراء معينة محدودة ، بل تختلف الآراء فيها باختلاف الأفراد ، وتتعدى هذه الآراء الحدود السياسية والقومية حيث يرتبط الناس فى الدول المختلفة بمشاعر دينية وأخلاقية واحدة ، وانتشرت الجمعيات الصوفية والكنائس التى لا تدين للدولة بسلطانها عبر الحدود وأخذ الناس يميلون إلى إحلال نوع من القيم الأخلاقية الخاصة بهم محل المعايير الأخلاقية التى تحكمها الدولة ولم يعد يستهويهم أن تتدخل الدولة فى نوع الحياة التى يعتقدون صلاحها .

[فالمضمون الأخلاق للدولة أقل فى مستواه من المضمون الأخلاق للمجتمع ، والحياة الاجتماعية كما تعبر عن نفسها فى السياسة أقل صلاحاً مما يعبر الناس عنه فى حياتهم الخاصة] ، قد يكون رجل القانون فاسد الأخلاق وليس من الضرورى لمن يلتزم بالقانون أن يكون على خلق أو على المستوى المنشود للأخلاق .

وتحرم الدولة المثالية — كما يقول بوزانكيه — أى سلوك لا يدين بالولاء للمجتمع الذى تمثله ، ولا تعترف بأن هذه الجمعيات والهيئات تحتوى فى صميمها على كل مايعنى الفرد ويهمه فى حياته الخاصة .

وبالرغم من ازدياد النشاط الخارجى للدولة فى السنوات الأولى من القرن العشرين فقد أخذت تواجه ضغطاً ملحاً لأبعادها عن حياة الفرد حتى لم يعد ليتصل بالدولة إلا فى إداء الضريبة أو العمل محلفاً أو عندما يدلى بصوته فى الانتخابات العامة ، ويتبع ذلك أن الفلسفة السياسية الجديدة لا تفكر فى الدولة على أنها كيان منعزل مكتف بذاته . لا يتأثر بأية علاقات خارجية للجمعيات والهيئات التى تحتويها .

ويصبح رد الفعل المباشر للنظرية المطلقة هو أن تمتد اعترافها بالإرادة العامة وبالشخصية الحقيقية للدولة إلى تلك الجمعيات أو الهيئات التى تحتويها ، أو أن تنكر الإرادة العامة والشخصية الحقيقية ، وتتحول إلى جهاز إدارى يمكن أن يحل محله جهاز مركب من هذه الجمعيات والهيئات الاختيارية . أما كيف يتم ذلك فهو ما يتناوله المؤلف فى حديثه عن « الفردية الحديثة » وعن « الاشتراكية النقابية » فى الفصول التالية .

ويرى « جود » أن الفردية باعتبارها نظرية اجتماعية وسياسية بنت القرن التاسع عشر وثمرة تفكيره ، أينعت على يد « بنتام » و « جيمس ميل » وزكت على يد « جون ستيوارت مل » و « هربرت سبنسر » حتى تغلبت عليها النظرية المطلقة للدولة فى الثمانينات من القرن التاسع عشر .

وأول ما نتبينه من خصائص المذهب الفردى عند « جون ستيوارت مل » هو تحديد وظيفة الدولة بالعمل على سعادة الأفراد ، ومع تسليمه بأن الفرد لا تكتمل طبيعته إلا فى الدولة فان ذلك لا يعنى ألا تكون وظيفتها إسعاد الفرد . وعلى الدولة التى تعجز عن تحقيق ذلك أن تخلى مكانها لشكل آخر من التنظيم الاجتماعى يكون أكثر قدرة على تحقيقه ، وتستطيع الدولة أن تحقق سعادة الفرد إذا قل تدخلها فى شئونه الشخصية .

ويتحمس « جون ستيوارت مل » فى رسالته « عن الحرية » لحرية الفكر وللتسامح حتى مع الآراء التى يعسر علينا إدراكها أو نفشل فى فهمها . فبين كل عشرة من الأغبياء يوجد الذكى اللامع الذى يفيد الحياة والمجتمع ، فاذا قيدت الدولة فكره ، أو تعرض لاضطهاد الرأى العام على غبائه وانسياقه وراء الدعاية التى يملكها بعض الأفظاظ الطموحين ، خسر المجتمع ذخيرة طيبة لارتقائه وتقدمه ، فان « من الخير للبشر أن يعيش كل منهم وفقاً لما يراه خيراً لنفسه وليس وفقاً لما يراه الآخرون خيراً له » .

[فحرية السلوك « من أهم عناصر السعادة البشرية والعنصر الأساسى فى التقدم الاجتماعى للفرد » وهى فيما لا يمس المجتمع من أبرز خصائص الحرية الفكرية إلا أن للمجتمع فيما يمسه أن يلزم الفرد إذا كان سلوكه يضر برفاهية المجتمع] .

ويرى نقاد « مل » أن الفصل بين السلوك الخاص بالفرد والسلوك الذى يمس الآخرين أمر عسير فكل سلوك لنا يمس غيرنا إلى حد ما ، ولكن « مل » لا يأخذ بهذا الفصل الدقيق بين نوعى السلوك ، بل يرى فى تقديره مرشداً حقيقياً يصحح اختلال التوازن بين الحرية التى يحسها الفرد وبين الحرية الحقيقية التى تستأثر بها الدولة . فمهما قيل من أن الدولة معصومة من الخطأ ، فان ذلك لا يتعدى النظرية إلى العمل ، فالقائمون بالعمل فى الدولة مجموعة من الموظفين الحكماء أحياناً والحمقى أحياناً أخرى .

وتأخذ النظرية صورة جديدة على يد « سبنسر » متأثراً فى ذلك بنظرية « داروين » ، إذ يرى أن الدولة وإن كانت تعاقدية فان المجتمع كائن عضوى متطور يبقى فيه الأصلح ، حتى ليرى أن الدولة غير ملزمة بتقديم أية مساعدة للفقراء أو بذل أية معونة جماعية للمكروبين ، وعلى المجتمع أن يستأصل تلك العناصر التى تقع صريعة التنازع على البقاء وتتجرد النظرية على يديه من النزعة الإنسانية وتعود بالمجتمع إلى حالة شبه بربرية .

[ومهما يكن لمبدأ عدم التدخل فى حياة الفرد ونشاطه من جاذبية فإن اقترانه بالاتجاه الاقتصادى للعصر قد ولد مبدأ « حرية العمل » ، الذى أدى إلى كثير من الكوارث مهدت للاشتراكية خير تمهيد . كما أدى تطبيقه إلى زيادة تدخل الدولة ، وإلى البريق الخلاب الذى أحاط بدعوة الاشتراكيين الجماعيين] .

ونجم عن زيادة تدخل الدولة استياء أدى إلى بزوغ نزعة فردية مماثلة لفردية « جون ستيوارت مل » يعمل على إقصاء الدولة عن التدخل فى الحياة الخاصة للفرد ، واعتبارها واحدة من الجمعيات العديدة التى ينتمى إليها الفرد بمحض اختياره ، وإن ظلت الدولة هى الجمعية الوحيدة بين هذه الجمعيات التى ينتمى إليها الفرد دون اختيار .

ونما الاتجاه المعادى لتدخل الدولة لما افترضته لنفسها من حقوق خلال الحرب ، وإلى نسبة الحرب ذاتها إلى سلطة النهب التى تمارسها الدولة الحديثة مقترنة بعدم مسئوليتها فى مجال العلاقات الخارجية ، وما يؤدى إليه حكم الأغلبية لتعصبه المقيت من طغيان يعصف بابداع الأقلية وتطور الفرد الخلاق ، وبدا أن حكم الأغلبية ليس ضماناً أكيداً للسعادة العامة . وظهر اتجاه واضح إلى توزيع قوى الدولة ووظائفها على أوسع نطاق حتى تهيئ للفرد بعض الحماية ضد الأغلبية ، وهو اتجاه الفردية الحديثة .

ويستعرض « جود » فى هذا آراء « نورمان انجيل » فى كتابه « الوهم الكبير » ، وآراء « جراهام ولاس » فى كتابه « المجتمع العظيم » واقتراحات « بيلوك » فى كتابه « الدولة المستعبدة » .

أما « نورمان انجيل » فيرى أن المصالح الاقتصادية هى التى تحكم الناس ويقول « إن تفكير الناس وشعورهم بوصفهم أعضاء فى مجتمع اقتصادى عالمى سجيته السلام ، أكثر نفعاً لهم من أن يفكروا ويشعروا بوصفهم أعضاء فى مجتمع سياسى سجيته الحرب » . وعندما يدرك الناس تلك الحقيقة سينبذون التنظيم الحالى للمجتمع القائم على التنافس القومى إلى تنظيم اقتصادى يتوخى نفعهم . يحل التعاون فيه محل الصراع فى ميدان الاقتصاد ويقتص فى الوقت ذاته من وظائف الدولة .

ويتفق « جراهام ولاس » مع « نورمان انجيل » فى عدم الثقة بقوة الدولة التى زاد نموها ، ولكنه ينظر إلى المشكلة من زاوية أخرى .

[فإن نقل وسائل الإنتاج من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة لا قيمة له ما لم يحكمها ويديرها جهاز يمثل المجتمع الذى يملكها حقيقة . وينقد لذلك التمثيل النيابى القائم على التقسيم الجغرافى ويقترح أن يتم الانتخاب على أساس مهنى ، يمثل فيه المجلس المنتخب كل الحرف والمهن المختلفة مع قيام مجلس أدنى ينتخب على أساس جغرافى ، أو أن يقوم التمثيل النيابى على هيئات تنتخب على أساس جغرافى للقيام بمهام معينة يعين فيها أعضاء تختارهم المنظمات الحرفية والمهنية . ويرى « ولاس » بهذا إلى حماية الفرد من طغيان الأغلبية . فإنه لا يخشى عسف الدولة قدر ما يخشى تعسف الغوغاء] .

وأما « بيلوك » فيحبذ العودة إلى نظام الطوائف المهنية فى العصور الوسطى ويقترب بهذا من اتجاه الاشتراكية النقابية فى اعتبار أن المجتمع هو اتحاد لنوعين من الهيئات تمثل كل منها اتجاهات المنتجين والمستهلكين ، وتكمن نواة هذا التطور فى النقابات والجمعيات التعاونية الحالية .

وتتضح فى هذا كله معالم الفردية الحديثة واتجاهاتها الجديدة ممثلة فى إنكار قدرة الدولة فى النظرية الهيجلية ، وفى إقرار الشخصية الحقيقية للهيئات ، وفى إمكان الاستغناء عن الدولة إذا حل مكانها نظام للجماعات يقوم بوظائفها ، فالاختلاف البارز بين الفردية القديمة والفردية الحديثة هو فى النظرة إلى الهيئة باعتبارها بديلا للفرد فالهيئة وليس الفرد هى الوحدة فى المسائل السياسية مما يصون الإنسان الفرد من استغلال المصالح الاقتصادية للملكية الخاصة ، واضطهاد الرأى العام الذى يعبر عن نفسه فى حكم الأغلبية . فالجماعة لا تنشأ فى الدرجة الأولى إلا للحماية وفى الدرجة الثانية لرعاية المصالح المشتركة لمجموع أعضائها ، وهى الضمان لحرية الفرد الشخصية التى تتوج نظرية « جون ستيوارت مل » فى الفردية .

ويفرد « جود » الجزء الباقى وهو أوفى أجزاء الكتاب للاشتراكية بمذاهبها المختلفة مستوحياً منها صورة أخرى للتنظيم الاجتماعى الذى يحقق سعادة الإنسان . ويبرز أوجه الخلاف بينها جميعاً وهو خلاف يصل أحياناً إلى درجة حادة من التناقض فالاشتراكية كرد فعل للفردية غير الاشتراكية فى النظرية الماركسية ، « فقد أثبتت الاشتراكية أكثر من أية نظرية أخرى أنها تكون فى يد كل من مفسريها مذهباً مختلفاً » .

هذا وإن سبقت الماركسية نظريات اشتراكية تغرق فى الخيال وتنشد إقامة مجتمع مثالى خير ، إلا أن ماركس هو رائد الاشتراكية العلمية دون منازع

وتقوم الاشتراكية العلمية على نظريتين أساسيتين هما نظرية « فائض القيمة » و « التفسير المادى للتاريخ » .

[والتفسير المادى للتاريخ دون نظرية فائض القيمة هو الذى أثار ألواناً من الجدل أثمرت عدداً من المذاهب الاشتراكية لكل منها نهجه وتفسيره لعلاقة الفرد بالدولة ولعلاقات المجتمع الاقتصادية] .

والفرق بين الفردية والاشتراكية وإن كانا يسعيان سوياً إلى تحرير الفرد ، إلا أن الحرية فى المذهب الفردى تقوم أصلا ومن الناحية الاقتصادية بالذات على مبدأ « حرية العمل » ، وبالرغم مما يحققه هذا المبدأ من حرية التعاقد والمنافسة إلا أنه ينتهى بالفرد تحت إلحاح حاجاته المادية إلى الخضوع المطلق لإرادة المستغل ، وهى الثغرة التى نفذت منها الاشتراكية فى حملتها على الفردية .

[أما الاشتراكية فإنها تعمل على تحرير الفرد من ضغط حاجاته المادية حتى يستطيع أن يحيا حياته الخاصة وينمى شخصيته بحرية ، فى إطار من التنظيم الاجتماعى المحكم يقوم على اعتبار أن « المجتمع شركة من البشر تكونت وغرضها إعطاء كل أعضائها الفرصة لأشباع رغباتهم فى الحرية الروحية والحياة الطيبة » ويحل فيها دافع الخدمة الاجتماعية محل دافع الكسب الخاص] .

وتتضمن الاشتراكية الجماعية : توزيع أفضل للثروة ، وتنظم المجتمع لحياة اجتماعية من أجل المجموع ، مما يقتضى إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وإدارة الصناعة بقصد تحقيق حاجات المجموع لا لتحقيق الكسب الفردى ، فاذا عاقت رأسمالية الصناعة هذا فان دافع الخدمة الاجتماعية يجب أن يحل محل الربح الخاص . وعلى الدولة أن تقوم بالطرق الدستورية المشروعة بهذا التغيير ، وعلى الاشتراكيين أن يهيئوا الرأى العام له ، وتكون النتيجة التى تسفر عنها صناديق الانتخاب فى صفهم ، وعلى الدولة فى نظر هؤلاء الناخبين أن تأخذ على عاتقها — عندما يتم التغيير — عبء التنظيم الاجتماعى والاقتصادى وهو ما يعمل له حزب العمال البريطانى فى نطاق التقاليد الدستورية .

أما الاشتراكية النقابية فتقوم على اعتبار أن التنظيمات النقابية هى أساس المجتمع الجديد والأداة التى يبرز بها إلى الوجود ، وهى اشتراكية صريحة تعتبر رأس المال سرقة وتأخذ بنظرية حرب الطبقات فى المجتمع الرأسمالى وترى إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج واحلال ملكية المجتمع محلها . وتقوم نظريتها فى الأصل على تصور مجتمع أشبه ما يكون بمجتمع الجمعيات الاختيارية الحرة التى يدعو إليها الفوضويون .

[وتقف الاشتراكية النقابية وسطاً بين الاشتراكية الجماعية والاشتراكية التطورية أو التدريجية ، فبينما تشارك الاشتراكية التطورية النقابية فى الاعتراض على تدخل الدول فى المجال الصناعى ، فإنها تعترف بتمثيل الإرادة العامة فى المجال السياسى ، فان النقابية لا تعترف بأن يتولى العمال بوصفهم منتجين الإدارة فى المجالين الصناعى والاقتصادى فحسب ، بل فى الميدان السياسى أيضاً] .

ولا يثق النقابيون بالوسائل السياسية لتحقيق التغيير ، فالعمال يعتنقون مذاهب سياسية مختلفة ولكن مصالحهم الاقتصادية واحدة فهى التى تحملهم على الاضراب وهو وسيلتهم لتحقيق أغراضهم ولتنمية الشعور بالتضامن فيما بينهم ، وهو السلاح الذى يرون أنه يؤدى إلى الثورة فمن خلاله يتحقق لهم الاستيلاء على وسائل الإنتاج . ولا يعنيهم أن يجمع العمال على ذلك فى الصورة الديمقراطية المعروفة ، فحكم الأغلبية فى نظرهم مبدأ بورجوازى ، ويكفى فى مرحلة الانتقال أن تقود الأقلية كفاح العمال نحو التحرر ، ولا يتحرجون فى حركتهم عن التخريب ، والعنف وإفساد وسائل الإنتاج فضلا عن الاضراب وهو أقوى أسلحتهم .

وند عن الاشتراكية النقابية مذهب للاشتراكية جديد هو اشتراكية « الطوائف المهنية » ، وقد بدأ يجذب إليه الانتباه عندما نشر الكاتب الإنجليزى « ا . ج . بنتى » كتابه « رجعة النظام المهنى » عام ١٩٠٦ ، ودعا فيه إلى العودة إلى نظام العصور الوسطى فى « الحكم الذاتى للصناعة » ، حيث كان صاحب الحرفة هو الذى يملك أدوات العمل وهو الذى يقرر طبيعة إنتاجه ومداه .

وتقوم اشتراكية الطوائف المهنية على مبدأ « الديمقراطية الوظيفية » ، ولمبدأ الديمقراطية أهمية بالغة فى « النظرية السياسية » إذ تدعو إلى تفتيت مركزية الدولة إلى عدد من الهيئات المختلفة يمكن أن تعبر تعبيراً صادقاً عن مصالح الفرد فى المجتمع الحديث المعقد ، ولا يرى أصحاب النظرية ما تحول عملياً بينهم وبين تحقيق هذا النوع من الاشتراكية بالتطور الطبيعى ، رغم الادراك الواضح لدى الاشتراكيين عامة من أن التحول إلى الاشتراكية لا يتم بغير نوع من العنف .

وينتقل جود فى عرضه للنظرية السياسية إلى الشيوعية والفوضوية ، ويجمع بينهما على أساس أن الفوضوية قد ندت عن الشيوعية عندما اختلف « باكونين » وهو ماركسى أصلا مع الماركسيين على تفسير بعض نواحى المذهب ، وطرد « باكونين » وأتباعه من الدولية الماركسية عام ١٨٧٢ ، ودار الخلاف بينهما أصلا على « وظائف الدولة » إذ يرى الماركسيون من الألمان والإنجليز بقاء الدولة بشكل ما بعد الثورة ، بينما ينكر الفرنسيون والإيطاليون منهم الدولة برمتها ، إلا أن التطور الحديث يصل بين الاتجاهين فى إطار وثيق .

[فبينما تبحث الشيوعية فى فلسفة الكيف التى يتم بها الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية ، نرى الفوضويين يعلنون المبادئ التى تقوم فى المجتمع بعد الانتقال ، وبينما يهتم الشيوعيون بالتهيئة لهذا النوع من المجتمع يهتم الفوضويون بنوع هذا المجتمع . أى أن الشيوعيين تعنيهم الوسيلة أما الفوضويون فتعنيهم الغاية] .

ويرى الماركسيون أن الثورة الشيوعية يجب أن تمر بمرحلتين : مرحلة انتقال تقوم على سيادة البروليتاريا أو الطبقة العاملة فى الدولة ، ومرحلة شيوعية تزول فيها الطبقية ، وتختفى فيها الدولة كسلطة ، وفى المرحلة الأولى تقوم الدولة على السلطة

المطلقة للبروليتاريا لقمع أعدائها ، وليس للديمقراطية وللحرية كيان فى هذه المرحلة ، وحين تضع الحرية فى اعتبارها فلن يكون للدولة بهذه الصورة وجود ، وهو ما نعبر عنه بنظرية فناء الدولة ، فحين تنجح فى قمع البورجوازية ، لا تبقى حاجة إليها فأنها فى الأصل تنظيم طبقى يقوم لتحقيق مصالح طبقية ، وبفناء الدولة — كما يقول لينين — نفسح الطريق لمجتمع حر من الجمعيات الاختيارية تقوم بالأعمال العامة ، وبقيام هذا المجتمع ينتهى العمل الثورى ، وهذا هو المجتمع الذى ينشده الفوضويون ، وتتضح فيه الميول إلى الإدارة المحلية أكثر مما تتضح فى الماركسية التى تميل إلى المركزية .

ويدعى الفوضويون أن الفرد يستطيع أن ينمى طبيعته الكاملة فى مثل هذا المجتمع ، وأن يحقق كل ما هو كائن فيه بالتحرر من كل أنواع السلطة : تحرر الإنسان بوصفه منتجاً من نير الرأسمالى ، وتحرره بوصفه مواطناً من نير الدولة ، كما تحرره بوصفه فرداً من وقر الأخلاق الدينية القائمة على افتراضات تتعلق بما وراء الطبيعةمثل« الله القدير » ، وفى خطوات التحرر من الدولة تتفاوت الماركسية والفوضوية ، فان الفوضويين يأخذون منذ البداية بنظرية فناء الدولة ويقوم هذا المبدأ على عدم الثقة بالدولة وبالحكومة النيابية فالتمثيل الحقيقى للإرادة العامة فى نظرهم لا يتم إلا بدعوةمن يعنيهم الموضوع ، وتعيين مفوض يمثل إرادة المجتمعين بالنسبة لهــذا الموضوع على أن يزول هذا الاعتبار عنه بمجرد أن ينقل إرادة المجتمعين لما اجتمعوا له ، كما يقوم على اعتقاد أن الحكومة لا تقوم إلا على ممارسة القوة ، والقوة مجلبة للشرور ، وإنها نافلة لا تدعو الضرورة إليها، فالتعليم مثلا يمكن أن يدار بدون حكومة ، وحين تعجز الجيوش عن الدفاع ضد الغزاة — كما يقول كروبتكين — لا يصدهم غير الثورات التلقائية التى لا تنظمها الدولة والحكومة هى التى تدفع الأشخاص إلى السوء ثم تعاقبهم عليه .

وفى هذا الإتجاه للفوضوية نحو الحكومة تحل الجمعيات الاختيارية محلها ، فكل صناعة أو عمل « يجب أن تديره جمعيات اختيارية من كل من يشتركون فيها ، وستعين وتفصل موظفيها وتقرر سياستها الخاصة ، وتتعاون تعاوناً حراً من مثيلاتها من الجمعيات الأخرى » . وفى هذا التنظيم المتشابك يسود النظام فالفوضوية — كما يقول خطيبها لويس ديكنسون — « ليست عدم النظام ولكنها عدم القوة » .

ويختم جود كتابه ببحث « مشكلات النظرية الاشتراكية » فيناقش أولا حافز العمل فى الاشتراكية ويراه موجوداً بالطبيعة فى الإنسان وكل ما يتطلبه « أن يكون أكثر اختلافاً فى الكيف وأقل إرهاقاً فى الكم » حتى يؤديه الناس راضين ، ومن الممكن أن يتغلب العلم على العمل الكريه فيحرر الإنسان منه ، وتعويض من يقومون به تعويضاً مجزياً ، أما مسائل العمل والأجر فأمرها إلى الطائفة المهنية للمنتجين ، التى تقوم على مبدأ الديمقراطية الوظيفية ، فقد نمت الدولة إلى حد كبير وغدت جهازاً شديد التعقيد مما يدعو إلى تفتيتها وتوزيع وظائفها فى شكل هيئات صغيرة تملك قوى تنفيذية تهتم بكل من الإنتــاج والإدارة المحلية يمثل فيها الفرد ويشعر بأن له كياناً سياسياً . فحينما يكون الحكم الذاتى حقيقة يدركون أن المجتمع خاضع لتأثير إرادتهم لأن المجتمع يتكون منهم أنفسهم . ولا بأس من وجود هيئة مركزية لتنظيم أنواع النشاط المختلفة لهذه الهيئات ، ولهذا السبب فليس من المحتمل — كما يرى جود — أن يحقق المجتمع الفوضوى التجانس الذى ينشده .

ويعرب جود فى رأيه عن الوسيلة التى يتحقق بها مثل هذا المجتمع ويبدى شكه فى أن تكون الثورة سبيل الخلاص كما يرى الماركسيون ، وليس من سبيل غير التطور التدريجى ، وينصح بذلك عن نزعته الاشتراكية التى يدين بها الاشتراكيون الإنجليز .

د . حسين فوزى النجار

التقى الشرق العربي الإسلامي بأوربا النصرانية منذ العصر الأول لظهور الإسلام .

وكانت هذه اللقاءات إما عن طريق الحروب ، والتقاء الجيوش ، وإما عن طريق البعثات الدبلوماسية أو الثقافية ، مما ساعد في إيجاد ظروف متلائمة ، كان لها الأثر الفعال في أن يقف الأوربيون المسيحيون على مفاهيم جديدة ، ربما تكون هذه المفاهيم سبباً في انتصار الجيوش الإسلامية وتحطيمها لدولتين كبيرتين كانتا تتقاسمان مصير العالم في ذلك الزمان .

أما في العصور الحديثة فقد ازدادت عرى هذا الاتصال بصورة أوثق وأعمق ، ففضلا عن الاتصالات الجامعات الأوربية في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وأسبانيا وألمانيا وغيرها كراسي للتخصص في الدراسات الإسلامية : الأدبية والتاريخية والفلسفية ، بل إن الكثير من علمائهم قد كرس جهده للتعمق في هذه الدراسات ، وصاروا يعرفون باسم « المستشرقين » . ولمع من هؤلاء السنيور غارسيا غومث في أسبانيا ، والسير هاملتون جب في إنجلترا ، وجولد تسيهر في هولندا . والمرحوم ليفي بروفنسال في فرنسا الخ .

وكتب هؤلاء المقالات وقدموا البحوث ونشروا الكتب وأسهموا بنصيب موفور في نشر التراث العربي وإحيائه ، فمثلا معجم البلدان : الذي تولى

الطريق إلى الإسلام

عرض : نصر

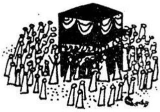
تأليف : ليوبولد محمد أسد

ترجمة : عفيف البعلبكي

الناشر : دار العلم للملايين
بيروت ٤٠٧ ص

الدبلوماسية والثقافية . فهناك الكتاب والصحافة والإذاعة والمحاضرات والمعاهد والأكاديميات والمنتديات وتبادل الأساتذة والطلبة والمنح الدراسية في مختلف مناحي الحياة الفكرية .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإننا نرى في



نشره لأول مرة المستشرق الألمانى فردنند وستنفلد منذ ما يقرب من قرن من الزمان . « وصفة جزيرة العرب » للهمدانى الذى تولى نشره أيضاً للمرة الأولى العالم النمسوى (داود هنرى ملر) والمناسبة هنا لا تسمح بالتوسع فى مثل هذا الموضوع .

[بل قام بعضهم بترجمة القرآن الكريم وتبويبه وترتيبه ترتيباً قاموسياً يخالف المعروف لدى عامة المسلمين .. ولا يفوتنى بأن أنوه بأن أضواء الغرب قد بهرت بعض الطلاب المشارقة ، فى حين وقف البعض الآخر منها موقف الحذر اللبيب مخافة أن يجرفه تيارها الخلاب.

وقد استطاع بعض الطلاب أن ينقل إلى العربية بعض ما تعلموه وترجموا كتباً ومقالات كشفت فى مضمونها عن فكرة الغرب المعاصر وظنونه إزاء تلك الشعوب الإسلامية فى منطقتهم الشاسعة المترامية الأطراف .

[وإذا كان ثمة شىء يمكن أن يقال : فإن طابع هذه المؤلفات يتسم غالباً إما بالتعميم الذى يشوه ما فيها من معلومات ويجعلها عرضة للنقد ....

أذكر على سبيل المثال « دراسات فى حضارة الإسلام » للمستر « جب » ترجمة الدكتور احسان عباس ، وإما أن يتم بالتعصب وسوء الفهم كما يظهر ذلك جلياً فى كتاب « العقيدة والشريعة فى الإسلام » لجولد تسيهر ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى .

وبعد . . .

فقد يثير القارئ سؤالا . . .

— ما علاقة « الطريق إلى الإسلام » بهذه التوطئة ؟

وأستمنح القارئ فرصة أعرض فيها للمؤلف وللكتاب . . وبعدها سوف أترك الحكم لذكاء القارئ ليضع الجواب حيث يشاء .

اسم المؤلف الذى سماه به أبواه ليوبولد Leopold واسم الكتاب الحقيقى The Road to Mecca والترجمة الحرفية لهذا العنوان هى : الطريق إلى مكة .

فالمؤلف إذن ليس بعربى ولا نبت فى أرض عربية ، كانت فكرته الأولى عن الإسلام لا تتجاوز « الاكليشيهات » التى انحدرت إليه عبر الأجيال بسبب الانفعالات والأزمات النفسية التى ولدت إبان الحروب الصليبية .

ولكن شيئاً ما حدث فى حياة الرجل . . .

فتجاربه ، ومخاطراته فى أسفاره إلى سوريا ومصر وإيران وأفغانستان ، وسبرته فى بوادى الحجاز ، وتعرضه للظمأ والتيه ، وملاقاته الأهوال والصعاب ، ومقابلاته لشخصيات دينية وسياسية ومعاشرته للأعراب . . كل ذلك قد جعله يدرك بعقله أين يكمن الجمال والخير ، وينفذ ببصره إلى بواطن الأمور ، وأن يتخطى بذكائه الصور إلى الحقائق . . وأن يزن الإنسان بانسانيته لا بثروته ، وبفضله لا بصناعته ، وبأصغريه — قلبه ولسانه — لا بأبهته وسلطانه .

أما هذا الكتاب فليس قصة حياة المؤلف — فما كان يحلم بأن تكون حياته قصة — ولكنه كما يتحدث هو عنه : قصة السنين المثيرة التى قضاها متجولا فى بعض الأقطار بين صحراء ليبيا إلى قمم (بامير) المكسوة بالثلوج ، بين البسفور وبحر العرب .

كانت تعن له أشياء فى حله وترحاله فيعيها بقلبه ، وتجربة تقابله ليختزنها فى وجدانه ، وحدث عابر يحدث دوياً هائلا فى نفسه ، وأشياء تمر أمام بصره فيحسبها الناس شيئاً هيناً ولكنها عنده شىء هائل وعظيم .

١ — يقف يوماً تحت الشمس المحرقة التى لا ترحم . . يقف ليصب الماء على وجهه فاذا به يرى عجباً . . قطرات الماء التى تتساقط من وجهه تصادف نبتة صغيرة مطمورة فى جوف الثرى ، فاذا بها ترتجف وتهتز ثم تتفتح ، وتتبدل حياتها فى لحظة ، وتنفض التراب الجاثم على رأسها ، وتصافح بأوراقها وبراعمها حرارة الشمس كأنما قوة خفية تدفعها لتخرجها من عالم الموتى إلى عالم الحياة .

٢ — ويأتى إلى مصر فيبهره جمالها الأصيل ، — وتجمعه الظروف — وهو فى الطريق إلى القاهرة بتاجر يونانى ، وعمدة مصرى لا يعرف القراءة والكتابة . . . ويشترك ثلاثتهم فى الحديث حول المبادئ الاجتماعية فى الإسلام . . . وتمر لحظة صمت قطعها اليونانى بسؤال موجه إلى رفيقهم المصرى :

« إنكم تقولون إن دينكم عادل جداً . . فهل تستطيع أن تفصح لنا عن السبب الذى من أجله يبيح الإسلام لأبنائه أن يتزوجوا بفتيات مسيحيات أو يهوديات ولا يبيح لبناتكم وأخواتكم أن يتزوجن بفتيان مسيحيين أو يهود » فهل تسمى هذا عدلا ؟

ويجيب الزميل المصرى : نعم أسميه « فنحن المسلمين نعتبر السيد المسيح وموسى الكليم وإبراهيم الخليل جميعاً أنبياء ،، أرسلوا إلى الناس بنفس الطريقة التى أرسل بها محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . فاذا تزوجت فتاة مسيحية من رجل مسلم فانها سوف تكون مطمئنة إلى أن أحداً من أفراد أسرتها الجديدة لا يمكن أن يأتى على لسانه بشىء يؤلمها نحو ما تعتقد أنه حق وصواب . . فى حين أنه إذا تزوجت فتاة مسلمة بشاب من غير دينها فانها لا تأمن أن يذم أفراد عائلتها من تعتقد أنه رسول الله . . فهل تعتقد أنه من العدالة تعريض مثل هذه الفتاة لهذا الإيلام والإذلال ؟

وهز اليونانى كتفيه ولم يرقه الجواب .

أما ليوبولد فقد اعتقد جازماً بأن هذا الجواب من العمدة الأمى قد أصاب المفصل والكبد فى مسألة على جانب عظيم من الأهمية .

وهنا يقول : « لقد شعرت بأن باباً جديداً إلى الإسلام يفتح لى » .

٣ — ومن العجيب أن يتكرر المشهد ، ولكن بصورة تختلف فى الزمان والمكان ، يقول ما ملخصه كنت راكباً قطار برلين تحت الأرض ، ووقعت عينى على رجل أنيق وسيم ، تبدو عليه آثار النعمة والثراء ، وتجلس إلى جواره زوجته الحسناء الظريفة الرقيقة ، إلا أننى لاحظت أن وراء هذه الوجوه المنعمة صورة من الشقاء الحاد .

ويعود إلى بيته ، ويستقر نظره فوق مكتبه ، فاذا هو يجد نسخة من القرآن الكريم ، وبصورة لا إرادية وجد نفسه يقلب صفحاتها ، وإذا هو يقرأ قول الله تعالى : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

وهنا يعتريه صمت رهيب . . .

أليس ما قرأه الآن تفسيراً لما شاهده . . . إنه يستحيل أن يكون هذا الكتاب مجرد حكمة يهديها إنسان إلى إنسان . . لأنه مهما كان هذا الإنسان فانه لم يكن ليستطيع أن يتنبأ بالعذاب الذى يتميز به هذا القرن العشرون .

هذه الصور . . . بل هذه الروائع من الآيات قد جعلته يتساءل ألف مرة . . .

لماذا لم يكلف أحد من الأوروبيين نفسه بدراسة الإسلام دراسة واعية ؟





ويجيب إنهم يفتحون نوافذهم لثقافات شرقية أخرى كالبوذية والهندوسية ، وقد يصل بهم الأمر إلى حد الاعجاب والتقدير ، ولكنهم بطبيعة الحال لا يمكنهم أن يستعيضوا بها عن آرائهم الخاصة .

بيد أنه عندما يصل الأمر إلى الإسلام فانهم يخشون منه وربما تكمن هذه الخشية فى أن قيم الإسلام قريبة فعلا من قيم الغرب إلى درجة تكفى لأن تشكل خطراً على المفاهيم الغربية فى الحياة الروحية والاجتماعية . . . أما دبو فقد استشرقت نفسه إلى ملكوت السموات والأرض ، وبات ليلته ليصبح مع إشراقة صبح جديد يعلنها كلمة باقية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويصبح الرجل ليوبولد — محمد أسد — ويصبح كتابه الطريق إلى مكة يحمل اسم « الطريق إلى الإسلام » .

وقبل أن أنهى هذه الكلمة لا يسعنى إلا أن أزجى شكرى وتقديرى إلى الأستاذ عفيف البعلبكى الذى تفضل بترجمته إلى قراء العربية . . بعد أن نشر بالانكليزية والألمانية والهولندية والسويدية .

د . جوده هلال

تأليف : أنور الجندى

الناشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٢٣٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى

الأستاذ أنور الجندى من أكثر الكتاب فى مصر إنتاجاً ، وأوفرهم تأليفاً ، وقد تقدم أخيراً بكتابه الجديد « الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى » إلى جمهور القراء فى مختلف الأقطار العربية عن طريق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى قام باخراج هذا الكتاب فى نحو مائتين وثلاثين صفحة من القطع المتوسط ، مصدراً باسم لجنة التعريف بالإسلام ، وهى إحــدى لجان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ويمكن تلخيص الدوافع التى حدت بالأستاذ أنور الجندى إلى تأليف هذا الكتاب فيما لمسه من وجود حملة ضخمة مخططة بدقة ومهارة ضد الفكر العربى الإسلامى ، بفروعه المختلفة : « الإسلام ، اللغة العربية ، التراث الإسلامى » ، وأن هذه الحملة تحاول تزييف الحقائق باسم التغريب ، وباسم الشعوبية ، كمحاولة لإقصاء العرب والمسلمين عن مقومات فكرهم الأساسية ، وأن كل الكتاب والباحثين الذين قاموا بهذه الحملة ، وهاجموا الإسلام واللغة العربية إنما كانوا يصدرون فيما يكتبون عن غرض أعمى طمس أمامهم حقائق الإسلام ، وشوه معالمها ، وهم ثلاث فئات :

١ - كتاب تابعون لدوائر الاستعمار ووزارات الخارجية فى الدول ذات النفوذ الاستعمارى فى العالم العربى .

٢ - كتــاب متأثرون بالتعصب الطبيعى الصادر عن الوراثيات ، ورواسب الحملات القديمة ضد الإسلام .

٣ - كتاب دفعهم إلى الخلط فهمهم الخاطئ لمضمون الإسلام ، وعجزهم عن القدرة الكاملة للوصول إلى جوهر المفاهيم وحقائقها .

على أن بعض المنصفين من كتاب الغرب الذين استطاعوا أن يتحرروا من هذه العوامل الثلاث - بالرغم من ضعف المراجع المنصفة للإسلام فى بلادهم - قد استطاعوا أن يصلوا إلى جوهر الإسلام ، وأن يفهموه دون تعصب ، وبذلك اعترفوا بفضل الإسلام ، وآمنوا بأنه هو الحل الوحيد لمشكلة الأزمة الإنسانية التى تمر بها الحضارة اليوم .

وقد أوضح الأستاذ أنور الجندى هذه الدوافع فيما خطته يراعته فى مقدمة هذا الكتاب ، فهو يقول فى هذه المقدمة : إن الإسلام قد واجه منذ القرن الخامس عشر حملة منظمة ، كانت تستهدف أمرين :

١ - القضاء على الإسلام فى نظر الغربيين والإنسانية جميعاً ، وتشويه معالمه الحقيقية ، حتى يسقط نهائياً .

٢ - إثارة الشبهات والشكوك فيه بالنسبة لأهله ، حتى ينتهى فيما بينهم كمقوم أساسى للحياة والفكر والحضارة .

وقد نجحت هذه الحملات إلى حد كبير فى تحقيق الهدفين ، [غير أن الإسلام استطاع بقوته الذاتية أن ينفذ إلى الفكر الإنسانى ، من خلال الكتابات التى حملت عليه ، وشوهت صفاءه ، وأن يجند أقلاماً غربية من كبار الكتاب ، والمؤرخين للدفاع عنه وإنصافه ، من أمثال جوستاف لوبون ، وتومــاس كارليل ، وأميل درمنجهم] .

ويمثل هذا التيار المنصف فى الفكر الإنسانى غزوة جديدة للإسلام ، لا شك فى قوتها وأصالتها ، والنتائج البعيدة المدى المترتبة عليها .

وأخذ المؤلف بعد تلك المقدمة يشرح التحديات التى واجهها الإسلام منذ قيام الرسول بدعوته فى مكة ، على يد الوثنيين من أهل مكة ، ثم على يد اليهود فى يثرب ، ولم تفتر هذه التحديات بانتشار الإسلام فى مشرق الأرض ومغربها فى غزواته الأولى ، بل ظهرت هذه التحديات فى صورة دعوات هدامة ، قام بها الدخلاء على الإسلام والعرب من الشعوب التى

أخضعها الإسلام لدعوته ، حتى كانت الحروب الصليبية فكانت مبدأ للتحدى السافر ، الذى واجهه الإسلام من خلف حدود العالم الإسلامى ، واستمر هذا التحدى زهاء قرنين ، ولم ينته بانتهاء الحروب الصليبية بل تجدد فى الأندلس بعنف وضراوة ، واستمر أكثر من أربعة قرون ، سقطت فيها معاقل المسلمين بعضها إثر بعض ، وشهدت الأندلس معارك إبادة لم يعرف التاريخ لها مثيلا فى الهول والشدة والعنف والمرارة ، فبلغ من قتل من المسلمين ، وحرق ونفى ، أكثر من ثلاثة ملايين مسلم . ثم انتقلت معركة التحدى إلى أوربا الشرقية ، حين دعا البابا « بيوس الخامس » إلى استرداد جميع الأقطار المسيحية والأجزاء الأوربية من دولة الخلافة العثمانية ، ثم اتخذ التحدى بعد ذلك صورة أخرى ، تجلت فى التبشير والاستشراق والتأليف والصحافة والمؤسسات المختلفة ، والإرساليات العديدة التى اندفعت إلى هذه المنطقة ، فى ظل النفوذ الأجنبى المسيطر على الدولة العثمانية ، وتحت سمع وبصر الحكومات المختلفة ، وتأييد قناصل دولها .

وقد استفاد الغرب خلال هذه المعارك من التراث الإسلامى ، فاجتاز الفكر الإسلامى بمختلف عناصره «الأدبية والعلمية والفلسفية» البحر إلى أوربا من ثلاث جهات : منطقة الشام خلال الحروب الصليبية ، وصقلية فى عهد الأغالبة ، وإسبانيا فى عهد الإسلام ، حيث أقام فى ربوعها ثمانية قرون [فكانت الثقافة الإسلامية مبدأ عصر النهضة فى أوربا . وما إن استطاع الغرب أن يسيطر على عصارة الفكر الإنسانى ، ويجعلها ركيزته فى بناء نهضته ، حتى بدأ يواجه الإسلام فى سلسلة من التحديات المريرة فعمل على تمزيق وحدة العالم الإسلامى ، وإخضاعه للسيطرة الاستعمارية متخذاً فى ذلك سبيل الدعوة إلى التجزئة والتغريب ، والمناداة بالقوميات الصغيرة ، وإحياء النعرات القديمة] .



ولكن الإسلام – الذى لم يكن فى صميم تعاليمه ديناً فحسب ، ولكنه كان ديناً ومجتمعاً وحضارة ، والذى حمى الحضارات القديمة ، ووسع بها كيانه ، وأضفى عليها من ملامحه – استطاع أن يصمد لهذا التحدى ، وأن يقاوم هذه الضراوة ، التى لعبت فيها الكنيسة دوراً ضخماً ، بتأييدها لمراكز التبشير التى انبثت فى قلب العالم الإسلامى ، كمقدمة للغزو العسكرى والسياسى ، والتى حملت فى تعاليمها صوراً شوهاء عن الإسلام وعن الرسول ، محاولة تشكيك المسلمين فى دينهم ونبيهم وتاريخهم ولغتهم . وأخذ كتاب الغرب المتعصبون ينكرون على العرب فضلهم على الحضارة ، ويشوهون تاريخ الإسلام ، وعلى رأس هؤلاء الكتاب فولتير ورينان ولامنس وزويمر وغيرهم ، ولم تكن فترة الضعف التى مرت بالعالم الإسلامى أمام هذه الهجمات المتتالية راجعة إلى الدين الإسلامى ، وذلك لأن الإسلام فى جوهره ومقوماته وأصوله ظل نابضاً بالحياة ، هادياً مضيئاً طوال القرون ، يمنح الحرية والقوة ، ولكن الضعف كان فى انصراف المسلمين عن مفاهيم الإسلام ، وضعف الحكومات الإسلامية وتخلفها ، مما أحل عصراً من الضعف والركود والتواكل والقوقعة ، أتاح الفرصة لظهور طبقة من العلماء الجامدين التقليديين ، الذين أغلقوا باب الاجتهاد ، وخضعوا لصاحب السلطان ، فتفشت البدع والخرافات التى نسبت إلى الإسلام بغير حق ، والتى حجبت فى نظر الغربيين كثيراً من جوهره ونقائه .

ثم انتقل الكاتب إلى الكلام عن الأسلحة التى استخدمها الغرب فى معركة التحدى للإسلام فى القرون الأخيرة ، ولخص هذه الأسلحة فى الاستشراق ، وكيف استخدمته الكنيسة لمحاربة الإسلام على يد جماعة من المستشرقين المتعصبين ، وأعضاء البعثات العلمية الزائفة التى اتخذت من العلم شعاراً لمحاربة الإسلام ، وفى استخدام بعض الصحف الغربية المتعصبة كالتيمس ، التى فتحت صدرها لكتابات بعض السائحين المتعصبين ، وكان أبرز هذه الأسلحة حملة التبشير التى بدأت منذ احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ ، متذرعة بنشر المدارس والمستشفيات ، مستغلة فى ذلك جهل الشعوب وفقرها ، وكان هؤلاء المبشرون هم الطابور الخامس لأممهم ، وكان عملهم الأساسى بث الفتن والاضطرابات ، وإثارة القلاقل ، التى من شأنها التمكين لدولهم فى السيطرة على العالم الإسلامى .

وكان مخطط التبشير فى واقع الأمر يهدف إلى ما يأتى :

١ – تشويه الإسلام والثقافة الإسلامية ، والتشكيك فى الأديان بصفة عامة .

٢ – إفساد الخصائص القومية فى العالم الإسلامى والعربى .

٣ – خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص مما يؤدى إلى الخضوع للمدنية الغربية .

٤ – إخضاع العالم الإسلامى للاستعمار الغربى .

٥ – توسيع شقة الخلاف بين الأديان والمذاهب والطوائف ، وتأريث نيران الخلاف كلما هدأت .

ومع أن التبشير لم يستطع أن يحقق بعض ما كان يتطلع إليه بعد مائة عام ، « وهو تحويل مجموعات ضخمة عن دينها الأساسى » ، إلا أنه استطاع أن يحقق هدفاً لا يقل خطراً عن ذلك ، وهو إثارة الشبهات ، وخلق جو من الالحاد والتحلل والتنكر للقيم الأساسية ، وإنشاء طبقة من المعجبين بالفكر الغربى والحضارة الغربية ، وما تحمله من عقائد ومذاهب ، ودفع هذه الطبقة إلى السيطرة والحكم ، متخذاً



منها ركيزة لبسط نفوذه على العالم الإسلامي .

ثم أخذ الكاتب فى الفصل الثانى يستعرض أقوال المعارضين للإسلام ، والذين كتبوا عنه بروح من التعصب والجهل ، ومهد لذلك بأن معظم هؤلاء المهاجمين أنكروا على الفكر الإسلامى تأثيره فى يقظة أوربا ونهضتها ، وأن المسلمين لم يكن لهم فضل فى ذلك إلا أنهم ترجموا تراث اليونان والرومان ، ثم استرده منهم خلفاء الرومانية من أبناء أوربا ، فلم يكن لهم إلا فضل حفظ هذا التراث حتى استرده أصحابه ، ومنهم من ينكر حتى هذا الفضل القليل على المسلمين فاتهمهم بالتقصير فيما تصدوا له من تراث قديم ، وأنحى على ترجماتهم لهذا التراث باللائمة ، لأنها كانت مليئة بالأخطاء والأغلاط ، مضطربة أشد الاضطراب ، ومنهم من عزا هذه الترجمات إلى علماء المسيحيين والنساطرة دون أن يكون للمسلمين فى ذلك دور يذكر . ولولا هؤلاء المسيحيون ما نقل هذا التراث .

[وذكر على رأس الكتاب المتعصبين ضد الإسلام « فولتير » فى مسرحيته عن النبى محمد ، والأب لامانس اليسوعى فى كتابه « نظرة فى حاضر الإسلام » ، وهانوتو فى مقالاته التى نشرت فى الأهرام سنة ١٩٠٠ ميلادية عن الإسلام والمسلمين والتى تصدى للرد عليها الإمام محمد عبده ، ولويس برتران فى حملاته على الإسلام ، والتى حشا بها كتابه « أمام الإسلام » ، ودوق داركور فى كتابه « مصر والمصريون » ، وقد رد عليه المرحوم قاسم أمين بالفرنسية فى كتابه «المصريون» والكاردينال لافيجرى فى كتابه « الرق فى الإسلام » ، وقد رد عليه أحمد شفيق باشا ، واللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » ، ومرجليوث فى كتابه « مستقبل الإسلام » ، وصمويل زويمر فى كتابه « الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله » ، ودكتور واطسون مدير الجامعة الأمريكية فى كتابه « الإسلام فى العصر الحديث »]

وكثيرون غير هؤلاء من أمثال ريذان وسكوت ولاندو وماسينون وسيرز وسينوبوس ودوزى ، وبلغت التحديات بهؤلاء المتعصبين أن صدرت دائرة المعارف الإسلامية باشراف المستشرق فنسنك مشحونة بالأخطاء والأغلاط والاتهامات ، وقد امتلأت حملات هؤلاء الكتاب بأقذع التهم ، ورمى الإسلام بالجمود ، والدعوة إلى إلغاء التعليم الدينى من المدارس النظامية ، وتشويه القرآن وتحريفه ، ومنهم من أعماه تعصبه إلى حد المطالبة بنسف الكعبة وقبر الرسول ! !

وبعد أن استعرض الكاتب كثيراً من أقوال هؤلاء المتعصبين أبان أن غرضهم من تحريف تعاليم الإسلام والحملة عليه هو تدمير قيم الإسلام ، وتحطيم مقوماته ، وأن كتاب الإسلام لم يتوقفوا لحظة عن متابعة هذه الحملة ، والرد عليها أولا بأول ، وكان أقدرهم على ذلك رشيد رضا فى المنار ، ومحب الدين الخطيب فى الفتح وفريد وجدى ، وعلى يوسف ، ومصطفى الغلاييني ، وعبد القادر المغربى ، والدكتور محمد حسين هيكل ، وعشرات من أبرز الكتاب ، فضلا عما كان لبعض الصحف المصرية من اهتمام بالرد على هذه الهجمات ، كما فعل المؤيد والبلاغ وكوكب الشرق والسياسة اليومية .

ثم استطرد المؤلف فذكر أن هذه الحملات المغرضة لم تزعزع من قوة الإسلام ، بل استطاع أن يصمد لها بقوته الذاتية ، وقدرته الكامنة فى أصوله وأسسه وقيمه ، ونفذ بهذه القوة إلى قلوب الباحثين المنصفين ، المتطلعين إلى الحقيقة ، الذين لم يتورطوا فى هوى خاص ، أو صلات سياسية مع الاستعمار ، فاندفعوا يكتبون كلمة الحق ، وينصفون الإسلام ، ويردون على أقوال المهاجمين ، بل إن من هؤلاء الباحثين من آمن بالإسلام واعتنقه سراً أو علانية ، وجاهر بأنه هو السبيل الوحيد إلى خير الإنسانية ، وأنه النظام الأمثل للحياة البشرية ، وأنه الستار الحقيقى للحضارة الإنسانية الذى يحميها من الدمار . وليس معنى هذا أن الفكر الغربى قد تخلى عن تعصبه ، وألقى ما فى يديه من أسلحة الهجوم ، ولكن قوة الإسلام الذاتية فرضت سلطانها على العقول المجردة ، فحملت كتابات المنصفين صورة الاعتذار عن عنف الخطأ الذى تورط فيه الكتاب المتعصبون ، ومن هؤلاء المنصفين توماس كارليل ، الذى أنصف الإسلام ، وشاد بعظمة الرسول ، وقال : إن الرسالة التى أداها الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من البشر أمثالنا ، ولا يمكن أن تكون هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها كل هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ، كما لا يمكن لرجل مخادع أن يوجد ديناً قوياً تعتنقه كل هذه الملايين ، وتؤمن به طوال تلك القرون . ومنهم جوستاف لوبون ، الذى ينعى فى كتابه « حضارة العرب » على الغربيين جحودهم لفضل العرب فى الحفاظ على الحضارة الإنسانية ، ونقلها إلى الغرب ، كما ينعى عليهم إنكارهم للدور الذى لعبته الحضارة العربية فى خلق حضارة أوربا ، ويعزو هذا الجحود إلى الحقد والتعصب ، ويشترك مع بعض الكتاب الغربيين فى أن الإسلام أمد البشرية بأحسن ما جاء به دين سماوى ، فأزال الأصنام والأنصاب ، وحرم القرابين البشرية ، وأكل لحوم الإنسان ، وحفظ للمرأة حقوقها ، وقيد مبدأ تعدد الزوجات وضبطه ، ووطد أواصر الأسرة ،



وجعل الرقيق عضواً فيها ، وفتح أبواباً كثيرة لتحريره ، وهذب الطبائع العامة ، ورفع مستواها بالصلاة والزكاة ، وعمل على تثقيف المشاعر بالعدل والانصاف ، وأقام المجتمع على أسس قوية قويمة ، وقاوم المنكرات بالعدل الالهى .

ثم يقف فى صف الإسلام غيرهما كتاب آخرون ، من أمثال خالد شلدريك المستشرق البريطانى المسلم ، وأميل درمنجم ، وكلود فارير ، وهنرى دى شامبون ، والسير ريتشارد وود ، والدكتور بول دى ركلا ، وفلكس فالى المستشرق المجرى ، وإيتان وينيه المصور الفرنسى الذى عاش فى شمال أفريقيا ، واقتنع بحقيقة الإسلام ، وبين فى كتابه « محمد نبى الإسلام » ما فى أقوال المستشرقين المتعصبين من تضارب وخلط ، وليون روش السياسى الفرنسى ، الذى اعتنق الإسلام ، وأقام ثلاثين عاماً فى البلاد الإسلامية يقرأ علوم المسلمين ويخالطهم ، ثم سجل فى كتابه « ثلاثون عاماً فى الإسلام » أنه وجد هذا الدين الذى يعيبه الكثيرون من الكتاب المتعصبين أفضل دين عرفه ، فهو دين إنسانى طبيعى اقتصادى ، وقد وجد فيه حل المشكلتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم الآن ، وهما : الاشتراكية ، والتكافل الاجتماعى فالاشتراكية مجسمة فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، والتكافل الاجتماعى قررته فريضة الزكاه ونظمته على الصورة التى جاء بها الإسلام .

كل هؤلاء الكتاب أنصفوا الإسلام من خصومه ، وشهدوا بفضل المسلمين على الحضارة الغربية ، واعترفوا فى كتاباتهم بأن معركة « شارل مارتل » التى أوقفت تقدم المسلمين فى أوربا هى التى أخرت سير المدنية ثمانية قرون ، وقرروا أن الإسلام دين المستقبل ، لأنه دين وحضارة ومجتمع .

ثم انتقل المؤلف بعد أن أورد أقوال خصوم الإسلام وأقوال المدافعين عنه إلى كتابة بحث جديد تحت عنوان « ضوء جديد من الإسلام » وأغلب ما جاء فى هذا البحث إنما هو تكرار معاد لأقوال خصوم الإسلام ومؤيديه من كتاب الفرنجة ، وقد قسمه فصولا لا ترابط بينها ، ففى الفصل الأول من هذا البحث تكلم عن أصول الإسلام ، ومع ذلك لم يتعرض لبحث هذه الأصول كما يعرفها المسلمون ، سوى كلمة بسيطة عن الزكاة استمدها من أقوال بعض الغربيين فى سطرين أو ثلاثة ، دون أن ينقل إلينا ما قاله الغربيون عن الزكاة ، وما تحمله من أسمى المعانى لسعادة البشر ، على اعتبارها أصلا من أصول الإسلام ، فظل العنوان لا يدل على ما كتب تحته من آراء ، ومثل ذلك ما فعله تحت عنوان حقوق المرأة . ثم تكلم عن الفتوحات الإسلامية تحت عنوان الإسلام والسيف ، وأورد أقوالا لبعض الكتاب الغربيين عن تسامح الإسلام ، وبخاصة مع الذميين ، وأن الحروب التى خاضها المسلمون إنما دفعهم إليها خصومة أعدائهم ، وتهجمهم على معتقداتهم . ثم عقد تحت عنوان هذا البحث فصولا أخرى عن التشريع الإسلامى ، وتاريخ الإسلام ، وحضارته ، وموقف الإسلام من العلم ، وكرر فى هذا الفصل ما ردده الغربيون من اتهام الإسلام بأنه لم يكن له فضل على العلم ، وأن دوره كان قاصراً على نقل علوم اليونان والرومان ، دون أن يضيف إليها شيئاً ، ثم اقتبس بعض ما قاله علماء الغرب دفاعاً عن موقف الإسلام من العلم ، وأنه الدين الوحيد الذى وحد بين الدين والعلم ، « فنجد فيه الدين ماثلا متمكناً فى دائرة العلم ، ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه متعانقتين ، فهما واحدة لا اثنتان » ثم تكلم عن الإسلام والاستعمار ، وعن مستقبل الإسلام ، ومقاومته للنفوذ الأجنبى ، ودسائس المبشرين ، وأقوال خصوم الإسلام ومؤيديه .

وفى الحق أن المؤلف قد جمع تحت هذه العناوين السابقة أشتاتاً من آراء الغربيين ، بعضها معاد ، وبعضها لا يضيف جديداً إلى ما أورده فى الفصلين الأولين ، بل إن بعض ما كتب تحت هذه العناوين لا يمت إلى موضوع البحث بصلة ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه تحت عنوان التشريع الإسلامى نقلا عن الدكتور انسباتو الإيطالى فى كتابه « الإسلام وسياسة الحلفاء » المطبوع فى سنة ١٩١٩ : « إن الكرم العلمى ، والصدق الفكرى صفتان من صفات الإسلام ، شأنهما أن يجعلا الأمة العاملة بهذا الدين أهلا لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا . ولما كان أمين الريحانى فى السفينة الشراعية على ساحل جزيرة العرب ، قاصداً ساحل الاحساء ، أثقل الهواء جفنه فنام قليلا ، ثم أيقظه صوت الملاحين وهم إذ ذاك يشتغلون فى قلب الشراع طوعاً للريح ، ويرددون (لا إله إلا الله) ، فقال الريحانى فى كتاب « ملوك العرب » : وربك أيها القارئ ما سمعت فى أنغام الليل فى الماء أطرب من صوت المؤذن فى الخليج وهو يؤذن الفجر ، ليس فى صلوات الأمم كلها أدعى إلى الورع والخشوع ، وليس هناك أجمل وقعاً فى النفس من صلاة الملاح فى ظل الشراع » .

ولست أدرى ما علاقة هذه الصورة البيانية التى خطتها براعة الأستاذ أمين الريحانى بالتشريع الإسلامى ، وبما قاله الغربيون عنه فى معرض الإشادة به ، ومسايرته لجميع التطورات والأزمنة .

ثم عقد المؤلف بعد ذلك بحثاً عن القرآن ، وآخر عن الرسول ، دون أن

يكون لها ذكر فى موضوعات البحث التى وردت فى أول الكتاب ، وقد تكلم فى البحث الأول عما واجهه القرآن من حملة شديدة من الفكر المسيحى منذ مطلع النهضة الأوربية ، وكيف أقبل القسس والعلماء على ترجمة القرآن ترجمة محرفة ، بلغت ٩٥ ترجمة إلى مختلف لغات العالم ، ثم أورد تهجمات بعض الأوربيين على القرآن من أمثال لورد كرومر ، الذى قال عنه فى كتابه مصر الحديثة الذى نشر فى عام ١٩٠٨ : « إن القرآن هو العقبة الكئود فى سبيل ارتقاء أمم الإسلام والمسئول عن تقهقرها » ، ثم استعرض المؤلف آراء المنصفين من علماء الغرب ، الذين اعترفوا فى كتاباتهم بأن القرآن منزل من عند الله ، وأنه فتح للمسلمين وللعالم مجال النهضة والحضارة ، وأورد فى نهاية هذا البحث ثبتاً بترجمات القرآن المختلفة ، وفى حديث المؤلف عن شخصية الرسول ذكر أقوال خصوم الإسلام فى نبى الإسلام ، وعلى رأس هؤلاء مارجليوث والقس كانون سل والأب لامنس ، ثم أقوال المنصفين الذين اعترفوا بعظمة الرسول ، وفندوا ما وجه إليه من اتهامات ، وفى مقدمة هؤلاء : توماس كارليل ، وجيبون ، ووليم موير ، وسيديو ، وبرنارد شو ، وتولستوى ، وجون سيمون ، وجوته ، والكاتبة الإيطالية الدكتورة « لورا فنيشيا » التى دافعت عن النبى بحماس وإيمان وصدق .

وفى البحث الخامس تعرض المؤلف للحديث عن « الإسلام والأديان » فأبان أن أوربا المسيحية كانت — ولا تزال — تنظر إلى الإسلام نظرة ملؤها الحقد والتعصب ، وهى تصور المسلمين بصورة الغزاة الذين اقتحموا النفوذ المسيحى الأوربى ، وأنهم كانوا عالة على الحضارة الآرية ، وأن أوربا هى سيدة هذا الكوكب دون بقية الأجناس السامية والحامية ، وفى ظل هذا الاستعلاء كانت حقيقة الإسلام مملثة بالضباب ، مجللة بالسواد ، فى نظر المثقفين الغربيين ، غير أن الإسلام استطاع بقوته الذاتية أن يصل إلى بعض النفوس والقلوب فيبهرها بضوئه ، ويحملها على الإيمان به إيماناً حقيقياً ، ثم أخذ المؤلف يترجم لبعض مشاهير الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام ، وأسباب اعتناقهم له ، ويذكر دفاعهم عنه .

وفى البحث السادس والأخير يتكلم المؤلف عن الإسلام ، وأنه الآن بصدد غزوة جديدة للفكر الإنسانى ، بعد غزوته الأولى التى جاءت فى أعقاب القرون الوسطى المظلمة لأوربا ، والتى كانت أساساً لعصر النهضة فى القرن الخامس عشر ، وأعاد فى هذا الفصل ما سبق أن تكلم عليه من محاولة تشويه حقائق الإسلام على يد الكنيسة ، والنفوذ الأجنبى بمختلف مصالحه فى الشرق ، وتحدث عن الدور الذى قام به المدافعون عن الإسلام فى هذه الغزوة الجديدة ، وهم فى نظره يمثلون ثلاث جبهات : جبهة المعجبين الذين هزهم الإسلام بحقائقه الدامغة ، وجبهة القادة والكتاب السياسيين الذين أعلنوا الحقيقة لقومهم عن جوهر الإسلام لتضع حكوماتهم ومؤسساتهم الخطط التى تمكنها من رسم طريق صحيح مع العالم الإسلامى ، وجبهة المؤمنين الذين بهرهم الإسلام حقيقة فآمنوا به . وخلص المؤلف من كل ذلك إلى أن الإسلام هو الطريق الوحيد للخلاص من القلق والاضطراب ، وأنه سبيل الوصول إلى الطمأنينة الفكرية والنفسية .

والكتاب فى جملته سجل حافل لكل ما قيل عن الإسلام من خصومه ومؤيديه ، ولولا بعض الاضطراب فى التبويب ، وتكرار بعض الحقائق لبلغ به الغاية ، ولا يضيره ما فيه من هنات وأخطاء ، قد تكون المطبعة هى المسئولة عنها .

محمود الجرسي



فكرة المسرح

النـاشر
دار النهضة العربية
مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
٣٩٨ ص - قطع كبير

— متى تقصينا الدافع إلى تأليف الناقد الأمريكي فرنسيس فرجسون لكتابه « فكرة المسرح » فإننا سنجد « على الأخص فى المرارة التى أحس بها إزاء ما لمسه من انحراف المسرح الأمريكي بصفة عامة إلى أن يكون أداة طيعة (لصناعة التسلية) وخضوعه لسلطة السوق المتحكمة فى الحياة الأمريكية ، بل وفى تخيل الأمريكيين للحياة ذاتها (راجع ص ٣٧١ وما بعدها من الكتاب على الأخص) ويسجل فرجسون فى مؤلفه الخطر المحدق بالثقافة كلها من جراء عدم التنبه إلى وجوب الاعتداد بالحياة الإنسانية على أنها أكثر من مجرد سلعة للتسويق تنتجها آلات الصناعة الحديثة . ويقرر فرجسون أنه إلى أن يقوم مسرح الحياة الإنسانية فى زمننا فلا محيص من أن نواصل دراسة علامات الطريق الثقافية التى تحققت فيها فكرة المسرح منذ أقـدم العصور ، وذلك حتى نتعلم ونأمل أن يكون للقرن العشرين « مسرحاً كما يجب أن يكون » .

وقد دعت هذه الضرورة المؤلف إلى أن يتقصى فى الجزء الأول من كتابه عن « فكرة المسرح » أو بعبارة أوضح عن « المسرح كما يجب أن يكون » مستقياً هذا المفهوم من أعمال مسرحية أساسية ، منزهاً « المسرح الحق » أو « فكرة المسرح » عن ترهات « المسرح التجارى والترفيهى » ثم ينتقل المؤلف فى الجزء الثانى من كتابه إلى المسرح الحديث مقرراً بادئ ذى بدء أن الأعمال المسرحية الحديثة لا تحقق فكرة المسرح إلا بطريقة جزئية فحسب .

— وإذا كنا قد بسطنا فيما تقدم الدوافع الرئيسية إلى تأليف كتاب « فكرة المسرح » فإننا نعتقد أن ما دفع الأستاذ جلال العشرى إلى ترجمة هذا الكتاب هو المنهج الذى سار عليه المؤلف فى الاهتمام بدراسة المسرح دراسة تطبيقية ، فهو لا يكتفى بعرض الأفكار المجردة ، بل يعمد على الأخص إلى التطبيقات يقدم من خلالها القضايا الأصولية . والحق أن عرض التفاصيل فى هذا الكتاب منسوج ببراعة واقتدار ، ويمزج الفكرة العميقة بالسرد الأمين الواعى . ولقد أمكن للمؤلف من خلال عرضه لنظريته أن يوسع آفاق معرفتنا بأمور جانبية كثيرة . فعندما يحدثنا عن مسرحية « الملك أوديب » مثلا يعرج بنا إلى مسرح سوفوكليس قاطبة ، بل وإلى مسرح يوروبيدز وإلى دراسات أنثروبولوجية حديثة أثرت — من خلال تعقب الطقوس والأساطير الموغلة فى القدم — فى مفاهيمنا عن « أوديب الملك » . وعندما يدرس المؤلف مسرحية « بيرينيس » يحدثنا عن لغة راسين ، بل وعن معاصره كورنى والمسرح الباروكى قاطبة . وعندما يعرض لنا « تريستان وايزولد » يحدثنا عن الموسيقى الفاجنرية وآراء نيتشه صاحب كتاب « مولد المأساة من روح الموسيقى » بل ووجهة النظر النازية فى الفن بوصفه تعبيراً عن العاطفة القومية . وعندما



تأليف

فرنسيس فرجسون

ترجمة وتعليق

جلال العشرى

مراجعة وتصدير

دريني خشبه

يعرض لنا المؤلف « هامليت » يقدم لنا آراء كثير من النقاد الذين كتبوا عنها وفى مقدمتهم ت . س . اليوت صاحب نظرية « المعادل الموضوعى » وعندما يحدثنا المؤلف عن « بستان الكرز » يعرض لنا مجهودات ستانسلافسكى و « مسرح الفن » بموسكو فى تقديم أعمال تشيكوف ، بل وفى غرس « الحساسية التمثيلية » التى يمكن أن توصل إلى تطوير « الواقعية الحديثة » إلى ما هو أكمل وأفضل .

— ولعلنا لا نعدو الحق إذ نقول إن كتاب « فكرة المسرح » يقوم على مسائل رئيسية ثلاث تتفرع عنها عدة مسائل ثانوية أخرى . والمسألة الأولى التى يطرحها الكتاب هو هل المسرح محاكاة للطبيعة وإذا صح أن المسرح هو تقليد كما نبهنا أرسطو منذ قديم فلماذا هو كذلك ؟

أما المسألة الثانية فهى مدى ارتباط « فكرة المسرح » بالأسطورة وبالأشكال الشعائرية التى نبتت فيها جذور التراجيديا

والمسألة الثالثة التى يلفت الكتاب النظر إلى الاهتمام بها هى « الحاسة التمثيلية » التى تعتبر بمثابة الأذن المرهفة من الموسيقى ، وتقتضى ترويضاً واعياً عنيفاً للمشاعر والخيال كترويض الأجسام فى رقصات الباليه .

— ويسجل المؤلف أن ما قاله شيكسبير على لسان « هاملت » وهو أن المسرح مرآة قول صحيح . فالمسرح محاكاة لفعل . وإذا اعتدت مسرحية « بيرينيس » لراسين « بالفعل من حيث أنه عقل » واعتدت مسرحية « تريستان وايزولد » لفاجنر « بالفعل من حيث

أنه عاطفة» فان «فكرة المسرح» تكون قاصرة فى هاتين الحالتين ولا ترق إلى الكمال إلا إذا اعتدت «بالفعل من حيث هو جيساة» وإذا كان ذلك لا يتأتى إلا نادراً فقد تحقق فى «أوديب الملك» لسوفوكليس، فقد اتخذ «الفعل» فى هذه المسرحية صورة العقل وصورة العاطفة وصورة التأمل بواسطة الرموز معاً، ولم يكن فعلا جامداً محدوداً، بل كان متحركاً تحرك الحياة ذاتها.

[ولهذا فقد اتخذ فرجسون نقطة لبدايته مسرحية «الملك أوديب» وأرسى عليها نظريته عن «فكرة المسرح» ويسلم المؤلف بأن تعريف أرسطو التليد ما زال يتضمن قسطاً كبيراً من الحقيقة. فالمسرح محاكاة للحياة، لكن الحياة اليومية أضحت كتلة متملصة غير معبرة عن الأعماق الإنسانية ولذلك وجب أن ترقى المسرحية إلى محاكاة ما هو أعلى من السطحيات والصغائر]، ما هو أعلى من الأحداث العابرة الزائلة. وبعبارة أوجز يجب أن ترقى المسرحية إلى محاكاة مثل تلك التى قامت عليها «أوديب الملك» فلقد كانت صورة أعمق للحياة البشرية من أى عرض آخر لها. وتمثل فى بحث أوديب عن قاتل «لايوس» البحث الغامض عن الحياة كلها. وفى هذا البحث السرمدى يكمن «الإيقاع التراجيـدى للفعل» الذى يتألف من ثلاث حلقات مترابطة هى: الغرض والعاطفة أو المعاناة والادراك، فالإيقاع التراجيدى إنما ينسج من هدف ومعاناة فى سبيله ثم تنوير فى النهاية يبين أن الفعل موضوع المحاكاة إنما هو فعل مزدوج؛ فعل يجمع بين نقيضين فعل مخلص للحياة وفعل هو الحياة المزيفة بحيث يبين أن هناك على الدوام حقيقة كلية كامنة وراء الحقائق الجزئية.

— ومع أن «الدراما السوفوكلية» قد علمتنا أن كتابة التراجيديا تتطلب أكثر من مجرد الذهن، فقد وقفت «الدراما الراسينية» — التى هى صورة من الدراما الباروكية بصفة عامة — عند «العقدة» فحسب، ولم تتجاوزها كثيراً إلى الفعل على ما فهمه سوفوكليس. واعتقدت الدراما الراسينية أنه يكفى لتشييد المأساة الناجحة أن يصنع المؤلف عقدة محكمة أو — على حد قول البعض — «مؤامرة» مصبوبة فى قالب جدلى، مع اعلاء العقل والواجب على العاطفة، فتستخدم اللغة بشكل بللورى صاف لتحقيق التآلف الجمالى بين الألفـاظ والمعانى.

وإذ وقفت «المأساة الباروكية» عند حد العقدة، ولم تتعدها إلى حركة الروح وهى تحقق وجوده لحظة فلحظة فقد اختفى الطابع الشعائرى من «المسرح الراسينى».

— وإذا كان راسين قد عمد إلى محاكاة نمط واحد من أنماط الفعل هو العقل فقد عمد فاجنر بدوره إلى استنباط شكل الفن ومضمونه من نمط آخر من أنماط الفعل هو العاطفة. وقد عمد إلى بث هذه العاطفة فى جمهوره عن طريق الموسيقى، فجاءت امتثالا مباشراً للعاطفة.



ولقد عمد فاجنر فى خضم مجتمع بورجوازى يتوقع من المسرح أن يكون صنعة للتسلية إلى معارضة المشهد العقلى الصغير بالعاطفة أو المعاناة، وحملها على أنها الحقيقة الوحيدة فى خبرتنا الإنسانية.

[وكلما كان السامع فى نشوة العاطفة كان كل شىء متسقاً وفى غاية من الكمال والروعة، على أن العاطفة فى دراما فاجنر الموسيقية معروضة فى حساسية يائسة، وتتتابع الأحداث المسرحية لتظهر أن انتصار الموت هو انتصار الحب؛ أى أن فاجنر قد حاكى فعل البحث عن الموت اللذيذ المؤلم المراد بلا إرادة].

— وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى مسرحية «هامليت» لشيكسبير فإننا نجد أنها تخلو من القصور الذى شاب كلا من «الدراما الراسينية» و «الدراما الفاجنرية». وربما كان أصدق وصف لفعل هامليت الرئيسى أنه يحاول أن يجد «الخراج الخبئ» الذى يسمم حياة الدانمارك فى عهد كلوديوس، وأن يفقأه.

ولقد كانت نظارة شيكسبير كنظارة سوفوكليس على استعداد لتقبل «هامليت» لا على أنها قصة مثيرة فحسب، بل على أنها الاحتفال بسر الحياة الإنسانية أيضاً.

وهامليت قبل كل شىء يكشف عن الجريمة الخفية التى تدور عليها كل خيوط العقدة المتشابكة، وهذا هو الحال أيضاً بالنسبة لأوديب. وإذا كان المظهر الخارجى للمسرحيتين هو «البحث عن الجريمة» فان الكناية والتورية فيهما توحيان بصورة عامة للإنسان، صورة فيها الضعف والصلابة، فيها الذنب وتحمل المسئولية، فيها الاصرار والحماقة. وتبدأ كل من المسرحيتين بابتهال من أجل سلامة الكيان الاجتماعى المهدد بخطر لا يعرف سببه، وتقوم كل منهما على أن شقاء الضحية ضرورى لتمام التطهير والبعث من جديد.

— وبعد أن تحدث فرجسون فى الجزء الأول من كتابه عن فكرة المسرح

أو عن مدلول المسرح في نظره مستقياً هذا المفهوم من أربعة أعمال أساسية ، انتقل إلى المسرح الحديث مقرراً أن الأعمال المسرحية الحديثة لا تحقق فكرة المسرح إلا بطريقة جزئية . ويدرس فى فصول ثلاثة عدداً من المسرحيات باعتبارها أمثلة على الشكل الدرامي الحديث .

— ويبدأ المؤلف « بالواقعية الحديثة » مقرراً أنها المحاكاة الفوتوغرافية الصارمة للمشهد الإنسانى اليومى ، وتتصف فى نماذجها العادية بتصوير أسطح الحياة العصرية .

وقد نشأ هذا المسرح من انحلال « مسرح العقل » ، وما ترتب على ذلك من اعتلاء الخشبة شخصيات ذات بصيرة كليلة حسيرة . إنه مسرح « المشهد الصغير » الذى رفضه فاجنر مؤثراً عليه عالم العاطفة المظلم . وهو مسرح خلا أيضاً من الشعائر والأساطير ، وكل ما توصل إليه هو الحقيقة بمعنى نصف علمى .

على أنه رغم قصور المسرح الواقعى الحديث وانحداره إلى مشاهد البورجوازية العفنة بقوالبها الأخلاقية والاجتماعية المتحجرة ، فقد نبت فى حقل « الواقعية الحديثة » كتاب كبار أمثال إبسن وشيكوف وشو وبيرانديللو . وهؤلاء جميعاً أمكنهم أن يتعدوا إطار الواقعية مقدمين شيئاً أكبر من معطياتها نابعاً من « الحساسية التمثيلية » التى وهبوها .

— ويمضى المؤلف للتدليل على تعدى الكتاب المحدثين الكبار للواقعية إلى إبسن ، ويقف عند مسرحيته « الأشباح » ويخلص من تحليلها إلى أن الباحث المدقق يلمح فيها ، تحت سطح القصة الوحشية ، مشكلا تراجيدياً ذا طبيعة شاعرية هو نتيجة تأمل إبسن الجاد للوضع الإنسانى بصفة عامة .

ولقد فطن كثير من نقاد إبسن إلى التشابه بين « الأشباح » والتراجيديا الإغريقية وما تنطوى عليه من فعل محتوم يؤدى إلى كارثة لا محيص منها . فقد كانت « المسز آلفنج » بطلة « الأشباح » تشبه « أوديب » وتبحث عن حياة حقيقية حرة لابنها ولنفسها .

والحق أن إبسن كان يجاهد حتى يعرض نظرته الشعرية فى نطاق المسرح الضيق الذى أتاحته له الواقعية الحديثة ، محاولا إعادة اكتشاف الإيقاع التراجيدى الحزين عن طريق الواقعية الحديثة ذاتها .

— وإذا اتخذت حركة « الأشباح » شكل الخصام فان تشيكوف فى « بستان الكرز » لا يجادل ، بل يكتفى بالعرض. والسمة الغريبة عند تشيكوف أنه لايحاول أن يثبت شيئاً ، فهو لا يخاطب العقل ، بل الوجدان الشعرى . وأنسب وصف « لبستان الكرز » هو أنها « قصيدة مسرحى موضوعه معاناة التغير » ولئن بدأ تشيكوف من « الواقعية الحديثة » إلا أنه يعلو بعبقريته على قصورها وضيقها ، ويمهد الطريق لتطورات لاحقة فى المسرح الحديث مكتشفاً الامكانات الشعرية فى الواقعية الحديثة .

— وإذا كان تشيكوف يرى شخصياته كأنهم يعانون فان برنارد شو كان يراهم كأنهم متيقظون كل التيقظ منطقيون أحد ما يكون المنطق ، إلا أنه لم يفرق بين الواقع ونظرته الساخرة إليه ، فنقل الواقع من خلال الكوميديا إلى صور غير واقعية ، أو بعبارة أخرى إلى « فانتازيات ذهنية » أساسها المفارقة غير المحلولة .

— وقد قدر لبيرانديللو أن يحقق ماكان يبحث عنه برنارد شو. ففى مسرح كل منهما يضبط الإنسان متلبساً بالتفكير المنطقى ، إلا أن بيرانديللو يعرض هذه الرؤيا عرضاً يتسامى على مهزلة العقل الفريدة عند برنارد شو .

كان بيرانديللو يرى أن الحياة الإنسانية نفسها ذات صبغة مسرحية . ومن ثم اعتبر أن الحياة المألوفة ليست حقيقة واقعة ، بل مسرحية مؤداة . وقد استطاع بيرانديللو بشخصياته التى لم تكن وتريد أن تكون أن يظهر الإنسان فى كامل معاناته ، الإنسان الذى يجد لعنته فى تحقيق ذاته . ومن هذا التناقض بين شخصيات لم تؤلف وبين غزوها خشبة المسرح يتولد الوجهان الكوميدى والتراجيدى عند بيرانديللو . وهو يتنقل من أحدهما إلى الآخر بأستاذية تامة ، ويضرب بذلك بعيداً فيما وراء « الواقعية الحديثة » .

ومن خلال خصوبة العقدة عند بيرانديللو يتحول العمل المسرحى إلى محاولات لا تفرغ حول الفكرة والواقع . وفى هذه المجادلات التى لا تنتهى إلى نتيجة حاسمة تتبدى ألمعية بيرانديللو كأقرب ما تكون شبهاً بألمعية برنارد شو . على أن بيرانديللو بخلاف شو يعلو على المفارقات بقبولها على أنها نهائية ، أى على أنها ترجمات لصدع لا ينصلح فى المصير الإنسانى نفسه . ولقد أمكن لراسين أيضاً بقبوله الصدع بين العقل والعاطفة على أنه صدع نهائى أن يتسامى به محولا إياه إلى موضوع للتأمل والتفكير . على أن ظلام بيرانديللو المحفوف بالحياة التى لا شكل لها يفوق فى وحشيته « مؤامرات » راسين المصبوبة فى قالب جدلى ، فليس بيرانديللو محدوداً مثل راسين بالمشهد المتحجر للإرادة الأخلاقية المستنيرة ، مما مكنه من أن يستغل الأوجه الكوميدية والأوجه التراجيدية للتناقض الأساسية .

ولعل أخصب سمات الفن المسرحى عند بيرانديللو هو طريقة استعماله للمسرح ذاته ، فهو بتقبله الجرئ له على ما هو عليه قد حرره من مطالبة « الواقعية الحديثة » بأن يكون نسخة طبق الأصل من المشاهد خارج المسرح ، كما حرره من مطلب فاجنر بأن يكون أداة طيعة مطلقة للتلاعب بعواطف الجمهور . وهكذا أخرج بيرانديللو المسرح إلى النور ، وأصبح الطريق مفتوحاً بعده للبدء فى معاودة البحث عن فكرة للمسرح تقارن بفكرة الإغريق عنه ، وتصلح للتمسك بها فى العالم الحديث .



[لقد كانت « الدراما الباروكية » سبباً من أسباب ما وصل إليه المسرح الحديث من انحطاط فى كثير من الأحيان، فان فهم العقدة على أنها مجرد « مؤامرة » أو « دسيسة » قد أوصل إلى أن تصبح الدراما وسيلة للعب بعقول النظارة بحجة اشباع مطالب الجدل العقلى ، وانتهى الأمر بتقديم أعمال عاطلة من كل معنى جدير بالاعتبار] .

إن فكرة المسرح المعاصرة وإن أخذت ببعض قيم الواقعية الحديثة – وقد تجلى ذلك على الأخص فى أعمال تنيسى وليامز وكليفورد أوديتس – إلا أن تلك الفكرة تحتاج إلى حرية الفن الخالص غير المغرض ، وهى حريته فى الاستجابة لكل تجربة إنسانية .

وفى سبيل ذلك ينادى فرجسون بالعودة إلى التراث القديم ، والفنون الشعبية ، وكل ما يمكن أن يخلص المسرح الحديث من ربقة الآلة ، ويحطم الجمود الذى أوصله إليه « مسرح الغرفة أو الردهة » وهو « مسرح التسجيل الفوتوغرافى لنواحى الحياة اليومية » .

ويشيد فرجسون من أجل ذلك بمحاولات جان كوكتو واندريه أوبيى و ت . س . إليوت . فقد عمد كوكتو إلى إحياء التراث الإغريقى ، فأعاد صياغة « مأساة أوديب » فى جو معاصر مجدداً فى الديكور وطريقة الأداء ، وذلك فى مسرحية « الآلة الجهنمية » . وتبدو تلك الآلة من خلف الستائر دائرة بلا توقف أثناء سير الأحداث موحية بالرمز الأسطورى وراء المنظر الواقعى ، وبالعقدة فيما وراء الدسيسة العقلية المفهومة .

ونجح أوبيى ، وهو مؤلف فرنسى مثل كوكتو ، فى تقديم « حكاية نوح » من الكتب المقدسة ، ووفق فى بعث حياة بدائية على خشبة المسرح المعاصر . أما إليوت فقد رد الاعتبار للشكل الشعائرى فى التراجيديا ، ونبه الحضارة المادية إلى أهمية القوة الروحية المتمثلة فى الاخلاص للمثل العليا ، وذلك كله فى مسرحيته « جريمة قتل فى الكاتدرائية » .

– إن مما يستحق التقدير فى تقديم هذا الكتاب إلى قراء العربية هو الشروح التى أضافها المترجم فى الهوامش لكثير من النقاط التى تضمنها المتن . ومن هذه الشروح ما يدعم النص المترجم ويزيده ثراء ، بحيث تقل قيمة العمل المترجم بغير هذه الإضافات التى تدل على سعة معلومات المترجم وحرصه على أن يفى العمل المترجم حقه من العناية . ولا شك أن خبرة المترجم بالفلسفة والدراسات الجمالية كانت خير عون له فى هذا المضمار . ويكفى أن نشير هنا إلى تعليقاته بهوامش الصفحات ١٦٩ و ٣٥٣ و ٣٦٠ .

على أنه إذا كان المترجم موفقاً فى كثير من تعليقاته وايضاحاته إلا أننا كنا نتوقع منه مزيداً من الهوامش الشارحة بالنسبة لبعض النقاط التى عرضت فى الكتاب مثل « مدرسة باريس » (التى ورد ذكرها بصفحة ٣٦٩) و« بيرييه » (الذى ورد ذكره بصفحة ٣٠٨ وغيرها)

– وختاماً ، إن قيمة الكتاب كما تكون فى غزارة معلوماته تكون أيضاً بقدر ما يدفع القارئ إلى التأمل . وقد بدت طاقة « فكرة المسرح » على الايحاء بالتأملات فى المقدمة الضافية التى صدر بها الأستاذ درينى خشبه الترجمة العربية .

ويجدر أن نعترف للمترجم بالفضل حسن انتقائه ، فقد قدم لقراء العربية كتاباً غنياً يضيف إلى ثقافة المتخصصين أشياء ليست من قبيل المعلومات فحسب ، بل ومن قبيل الأقضية التى تشحذ الفكر ، وتدفع إلى تأمل ، هو أول الطريق إلى جابات أصيلة هى قوى الدفع الحقيقية نحو نشوء وعى مسرحى جاد وجدير بالاعتبار .

د . نعيم عطية

جولة بين الكتب

مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى
الجزء الأول

اختيار : ابن منظور محمد بن مكرم
تحقيق وتقديم : إبراهيم الأبيارى
الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة – تراثنا – ٥١٠ ص ١٧×٢٤
ث ٤٠ قرشاً

الجزء الأول من مختار ابن منظور المصرى صاحب لسان العرب الذى اختصر فيه ما جاء فى كتاب الأغانى أكبر موسوعة أدبية فى الإسلام . وقد قدم الأستاذ المحقق للكتاب بمقدمة ، تحدث فيها عن كتاب الأغانى وأهميته والمحاولات التى جرت لاختصاره ، ثم حياة ابن منظور وأدبه ومؤلفاته وخطيات المختار . ويشمل الكتاب اثنتين وخمسين ترجمة كلها فى حرف الألف .



• من سلسلة الشروق والغرب • الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ١٤٠ ص حجم كبير ١٧×٢٤ سم

هذا كتاب جديد أهداه مؤلفه إلى الجيل الصاعد وإلى الشباب الطموح ، وعرض فيه صوراً من البطولة الصادقة والمحاولات الجريئة لغزو القطب الشمالى .

ومؤلف الكتاب طيار صور أعمال البطولة والاقدام تصوير العارف الخبير وهو الطيار السيد المغربى .

ومن الرحلات التى ذكرها المؤلف فى كتابه رحلات « جون كابوت » John Cabot وابنه سباستيان Sebastian Cabot فى أواخر القرن الخامس عشر لاكتشاف مناطق مجهولة فى العالم ، وقد واجهت جون مصاعب شتى فى بدء رحلته، إلا أنه استطاع فى النهاية اقناع الملك هنرى السابع ملك إنجلترا، فسمح له بالقيام بالرحلة ليجوس خلال كل أركان الدنيا بحثاً عن أى جزر أو مناطق مجهولة ، واحتفظ الملك بحقه فى خمس الأرباح العائدة عن استغلال أى أرض جديدة .

وقد بدأ كابوت رحلته فى الخامسة من صباح يوم ٢٤ يونيو عام ١٤٩٧م فوق ظهر سفينة صغيرة ومعه ثمانية عشر بحاراً ، وقد استطاع أن يكتشف

فى رحلته كثيراً من الجزر ، وهو فى طريقه إلى جزيرة نيو فوندلاند فى شمال أمريكا الشمالية .

وتقول المصادر التاريخية إنه صادف ألواناً كثيرة من المتاعب والمصاعب بيد أنه استطاع التغلب عليها ، ومن ذلك أنه لم يصادفه فى بعض رحلاته إنساناً آدمياً ، وسار بجوار الشاطئ لمسافة ثلاثمائة فرسخ قبل أن ينزل إلى الأرض ، وقد عثر على بعض الفخاخ التى كانت معدة لصيد الحيوان ، وعلى إبرة خاصة لنسج شباك الصيد ، وبعض الأشجار المقطوعة مما يؤيد سكنى بعض الآدميين فى هذه المناطق المجهولة ، وبعد ثلاثة أشهر من بدء الرحلة اقترب الشتاء وشحت المؤن فقرر العودة ، وفى طريق عودته صادف جزيرتين جديدتين على يمينه ، ولكنه لم يحاول الانتظار عندهما قائلا أنه خشى أن تجنح السفينة فوق أرض الجزيرة ، فلا يقدر على دفعها إلى البحر مرة أخرى للبطء الشديد فى حركة المد والجزر حول الشاطئ .

وقد تعرض المؤلف لوثيقة كبيرة توضح مدى استفادة كابوت من رحلته ، وهى عبارة عن خطاب أرسل من إنجلترا إلى إيطاليا لشرح ما أفادته إنجلترا من هذه الرحلة ، وقد ورد فيه كيف أحرز النصر باحتلال بعض جزر شرق آسيا دون ضربة سيف واحدة ، وكيف وضع خريطة مفصلة للعالم ، وقام بتوقيع كل معالم الكرة الأرضية على كرة صلبة كان يحتفظ بها فى رحلاته ،



ليبين عليها المواقع التى يمر بها فى كل رحلة . . . وقد قيل إن الأرض التى احتلها كانت عامرة بالخيرات ، والمعتقد أنها تنتج الخشب البرازيلى والحرير كما أكد رجال البعثة أن مياه البحر هناك تغطيها الأسماك من كل نوع .

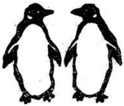
وبعد أن ساهم بجهود جبارة فى الكشف عن مناطق مجهولة كثيرة اختفى اسمه فجأة من سجلات التاريخ ، وتقدم ابنه « سباستيان » ليتم رسالة أبيه بمواصلة الملاحة عبر المحيط الأطلنطى ؛ ولكنه خالفه فى مبدأ واحد فقد قام برحلاته خدمة للعلم والمعرفة وليس لخدمة انجلترا الغاصبة المحتلة .

وفى عام ١٥٠٢ م أحضر معه ثلاثة رجال من جزر نيو فوندلاند يرتدون جلود الضوارى ويأكلون اللحم النيئ ويتكلمون لغة لا يعرفها أحد ، وبعد سنتين من الرعاية والمعاملة الطيبة تحول هؤلاء الوحوش إلى آدميين متحضرين إلى حد ما ، وشوهدوا فى شوارع لندن يرتدون ملابس الإنجليز ويأكلون طعامهم .

وتحدث المؤلف عن رحلة جون ديفز John Davis إلى القطب الشمالى والبحث عن الممر الشمالى الغربى إلى الصين ، وقد قام من أجل ذلك بعدد من الرحلات ومرت البعثة التى يقودها بجبال جرينلاند التى غطتها الثلوج فارتفعت شامخة خلف مساحات منبسطة من الثلوج البيضاء ، التى خلت من أى أثر فى الحياة ، مما دعا الجماعة إلى تسميتها بأرض العزلة ، ثم واصلوا سيرهم شمالا مارين بهذه الأرض ، ثم ألقت البعثة مراسيها عند أحد الخلجان الهادئة فهرع أهل المنطقة من الاسكيمو للقاء البعثة فى قواربهم الخفيفة ، وقد رفعوا أيديهم اليمنى فى اتجاه الشمس تعبيراً عن تحيتهم والترحيب بهم ، فأجاب البحارة تحيتهم بالطريقة نفسها وصعد الاسكيمو إلى ظهور سفن البعثة ، وهم فى أردية نظيفة وهم حليقو الذقون ودقيقو العيون ، تلوح عليهم الوداعة وحب الخير ، وقد اشترت البعثة منهم الملابس التى ارتداها أفرادها وهى مصنوعة من جلد عجل البحر وجلد الطير بطريقة فيها ذوق سليم .

وعلى الرغم من سذاجة هؤلاء القوم فانهم أرشدوا ديفيز إلى بحر واسع مفتوح إلى الشمال الغربى من جزيرة « جرنيلاند » ، فواصل سيره آملا العثور على هذا البحر إلا أنه توقف عن البحث لاقتراب فصل الشتاء ولجأ إلى ممر أطلق عليه فيما بعد اسم « مضيق ديفيز » .

ويحكى لنا المؤلف ما صادف هذه البعثة من مفاجآت عجيبة إذ التقت بأربعة دببة بيضاء هائلة الحجم ، فاعتقدوا أنها ذئاب قطبية أو غزلان ، ولم يتعرفوا عليها إلا باقترابهم منها ، ولم يعثروا بالمنطقة على أثر للحياة ، فلا أخشاب ولا تربة تصلح زرع ، بل صخور وصخور ، فلما توغلوا سيراً على الأقدام فوق الساحل فى اتجاه الجنوب صادفتهم مفاجأة سارة فقد عثروا على ممر مائى مفتوح إلى الغرب ، وخال من الثلوج تماماً ، وفى ثقة واطمئنان أبحرت البعثة لعبور المضيق الآمن الذى أطلقوا عليه اسم « مضيق كمبرلاند » ، وما أن خرجوا إلى البحر حتى عاقهم الضباب والرياح المضادة عن التقدم واقترب الشتاء ،



وأوشكت المؤن على النفاد ، واكتفى ديفز بكشف هذا الممر المائى المؤدى إلى الغرب :

وفى ٣٠ يونيو عام ١٥٨٧ وصل ديفز إلى موقع هام على ساحل جرينلاند وقال مسجلا هذا الحدث التاريخى القيم « وامتد البحر الكبير الأزرق على مدى البصر إلى الشمال والغرب ، وكان خط الأفق واضحاً محدداً بشكل لم أر له مثيلا من قبل ، ولا أثر للثلوج فوق صفحة الماء فيما عدا بعض الكتل الثلجية القليلة التى انتثرت هنا وهناك ، وقد ارتفعت قممها البيضاء المدببة فى اتجاه السماء ، وشاهدت جبال جرينلاند الجرانيتية إلى الشرق وظهر خلفها خط ناصع البياض لأوسع المناطق الثلجية فى العالم ، وخلت أنى أعيش فى أرض الملائكة وخلا البحر من الثلوج فى اتجاه الشمال ، ويا له من بحر مترامى الأطراف ، صاف كبير ، شديد الزرقة ، مجهول الأعماق والحدود » .

وتحدث المؤلف عن رائد من رواد الكشوف القطبية وهو ويليام بارنتس Barnets عمدة امستردام وأحد البحارة القدامى ذوى الخبرة وتعرض لمأساته حيث اعترض تقدم بعثته العواصف الشديدة والثلوج العائمة وانتشار الدببة القطبية ، واستمر هبوب الرياح واندفاع الثلوج حتى أوشكت السفينة أن تتحطم عن آخرها .

ورغم أنهم وصلوا إلى جزيرة الدب فى ٩ يونيو عام ١٥٩٦ وكانوا قد بدءوا رحلتهم من امستردام فى أوائل مايو ، فإنهم ظلوا طيلة شهر أغسطس فى أحد المضايق الشمالية محاولين تخليص السفينة من شعبها دون جدوى ، فلم يكن هناك مفر من قضاء الشتاء فى تلك البقعة المنعزلة الجرداء فى زمهرير قاتل وبؤس وشقاء . وعندما ارتفعت الثلوج كالجبال أوشك ضغطها على السفينة أن يحطمها إلى قطع متناثرة ، وجمع الرجال جميع جذوع الأشجار وجذورها التى قذفت بها الرياح فوق الشاطئ وسحبوها فوق الثلوج الوعرة طوال شهر سبتمبر حتى يشيدوا منزلا يأوون فيه فى فصل الشتاء ، وأصاب الاعياء أكثر أفراد البعثة فلم يبق منهم قادراً على الحركة إلا ستة عشر رجلا هدهم الجهد وأصابهم الأعياء .



ومر أكتوبر ونوفمبر ورجال البعثة قد حصرهم الثلج والرياح الشمالية العاتية ، وهم لا يجسرون على مبارحة الكوخ الشتوى أو محاولة الخروج منه ، والثلج يتساقط غزيراً حولهم طبقات فوق طبقات ، واستغل بعضهم فترات قصيرة متقطعة تهدأ فيها حدة العاصفة لصيد الثعالب التى تحوم حول المعسكر فى طلب الطعام ، فيأكلون لحومها ويستغلون جلودها فى عمل أردية تبعث الدفء فى أجسامهم كما دأبوا على تسخين الأحجار ونثرها تحت فراشهم ، فلما قاموا بغسل أغطية فراشهم تجمدت وأصبحت صلبة كالخشب ثم تجمدت ساعة المعسكر وأصبحوا لا يعرفون إن كان صبحاً أم مساء .

ثم حل عيد الميلاد ومضى دون أن يحتفل به رجال البعثة لأول مرة فى

حياتهم، وأخذ كل منهم يحاول أن يطمئن زميله ليذكره بأن الشمس قد بلغت أقصى درجات انخفاضها جنوباً مع أواخر ديسمبر، وأنها ستبدأ ارتفاعها مقتربة من الشمال ولا بد أن تبدأ الحرارة فى الارتفاع ويحل الدفء الذى طال انتظارهم له.

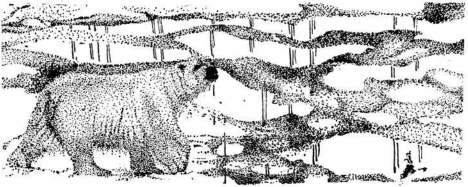
وحل العام الجديد عام ١٥٩٧ والبعثة محاصرة فى سجنها الرهيب، ومضى يناير وفبراير ومارس وأبريل وما زالت السفينة الصغيرة ترزح فى قيود من حديد وسط الثلوج المتراكمة حولها، وما أن بدأت الشمس تستعيد قوتها رويداً حتى عاد الأمل يداعب القلوب الكسيرة وبدأ رجال البعثة فى إصلاح قواربهم ورتق أشرعتها والكشف عن الأجهزة الملاحية، وبذلوا ما وسعهم من جهد حتى أمكنهم الخلاص بقواربهم فى منتصف يونيو وشقوا طريقاً وعراً وسط الثلوج حتى خرجوا إلى عرض البحر تاركين سفينتهم خلف ظهورهم مبحرين إلى البحار الواسعة فى قاربين خفيفين طلباً للنجاة.

ومرض بارنتس قبل الرحيل وأصابه الهزال وفقد المقدرة على الحركة وحمله الرجال من الكوخ إلى القاربين.

وفى أول نوفمبر عام ١٥٩٧ دخل مدينة امستردام قاربان صغيران عليهما اثنا عشر رجلا أصابهم الهزال والضعف، وجوههم شاحبة وأنفاسهم مضطربة، يرتدون ملابس غريبة من فراء الثعالب وجلود الدببة وبدءوا يقصون قصة كفاحهم لتجار امستردام الذين فغرت الدهشة أفواههم والذين كانوا قد فقدوا الأمل فى عودتهم.

وتحدث المؤلف عن هنرى هدسون الذى بدأ رحلته من القطب الشمالى عام ١٦٠٥ فى سفينة صغيرة زنتها ثمانون طناً ومعه ولده الصغير جاك وخادمان وثمانية رجال.

وبلغ هدسون أقصى الشمال فى ١٣ يوليو عام ١٦٠٥ ووصل إلى موقع لم يصل إليه أحد كما لم يصل إليه رحالة لمائة وخمسين سنة بعده، وبلغ أرضاً



تغطيها جماعات من أفيال البحر وعجول البحر والدببة القطبية ووقفت الثلوج فى وجهه حائلا دون اختراق المجهول وكشف أسرار الطريق إلى القطب الشمالى نفسه، وخيم الضباب على السفينة فحول هدسون اتجاهها مع ريح مواتية معتدلة وهو يقول « كانت تلك هى إرادة الله الذى أرسل إلينا ريحاً جنوبية تدفعنا بعيداً عن أخطار ربما كانت فى انتظارنا فى الشمال » .

وبينما كانت السفينة تشق طريقها مع رياح مواتية متجهة إلى الوطن اعترضتها الثلوج بعد بضعة أيام فعاقتها عن المسير . وانفجر الرجال كالبركان يعلنون العصيان وفقد كل من القائد ورجاله الثقة فى الآخر وكان معظم الرجال من الخشناء الغليظى القلب الذين هدهم هزال الجوع والحرمان عن إعلان عصيانهم مدة طويلة، فلما امتلأت بطونهم واستردوا قوتهم بما حصلوا عليه من الأسماك فى مسيرتهم الطويلة، ظهرت وحشيتهم الكامنة وانقلبوا ذئاباً كاسرة .

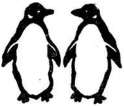
[ولم تحدث فى تاريخ الكشف بأنواعه مأساة أشد قسوة من تلك التى حدثت للرحالة « هنرى هدسون » وولده الشاب « جاك » ، عندما قرر رجاله الغادرون الجبناء أن يتركوها بين الثلوج فى الخليج القاحل الذى أطلق عليه اسمه] .

وذكر المؤرخ « بريكيت » تفاصيل هذه الفاجعة فقال « ولما أعلن البحارة العصيان والثورة على قائدهم، قرروا ابعاد القائد والبحارة المرضى عن السفينة واقتسام المؤن الباقية بينهم، وفى الصباح الباكر ألقوا القبض على هدسون وقيدوا ذراعيه خلف ظهره فلما صاح فيهم مستفسراً ماذا أفهم من هذه المهزلة ؟ أجابوه فى وقاحة « سوف تفهم عندما تصبح خارج هذه السفينة فى القارب المكشوف الذى أعد لحملك بعيداً إلى ذلك الممر اللعين الذى جئت تبحث عنه »

وأنزلوا القارب وبه هدسون وولده إلى البحر وقذفوه إلى عرض البحر الذى تغطيه الثلوج بعيداً عن الوطن وعن كل عون آدمى يمكن أن يقدمه إنسان . وفى اللحظة الأخيرة قفز بحار السفينة من فوق ظهرها ليلحق بقائده مفضلا الموت معه على الحياة مع الأشرار العصاه، وانطلقت السفينة « الكشف » ناشرة أشرعتها وكأنها هاربة من عدو يلاحقها .

ثم انقطعت أخبار هدسون وجماعته البائسة ولم يره أحد بعد ذلك أين ؟ كيف ؟ متى ؟ لا أحد يعلم .

وتحدث المؤلف كذلك عن مكتشف قطبى جديد هو ويليام بافين William Baffin الذى جذبته الأصقاع الشمالية بأسرارها وغموضها فجاس خلالها أربع مرات أكسبته خبرة واسعة بطبيعتها وطرق الملاحة بين دروبها المتشعبة، وقد استطاع أن يصل بسفينته إلى رأس « أمل ساندرسون » الشامخ فى أقصى شمال مضيق ديفيز واكتشف ساحل أمريكا المواجه لجرينلند كما اضطرت البعثة إلى الاحتماء بخليج أطلقوا عليه « خليج الحوت » Whale Bay لكثرة ما شاهدوه من حيتان ، وقد قرر بافين أنه كان من أوسع وأكبر الخلجان التى كشفها فى هذه المناطق .



[ويعتبر يوم ٦ أبريل عام ١٩٠٩ غرة ناصعة فى تاريخ الكشف القطبى ففيه نجح الرحالة الأمريكى بيرى Peary فى الوصول إلى مركز القطب الشمالى الحقيقى، تلك المحاولة التى استنفدت جهود آلافا من البشر على مر القرون. ودام صراع الدول عليها لأكثر من أربعمائة عام وأضاعت من عمر هذا الرحالة العنيد ثلاث وعشرين سنة من العمل المضنى والجهد الكبير] .

وكان بيرى قد بدأ حياته ضابطاً بالبحرية الأمريكية، فلما قرأ فى شبابه كتاب الرحالة السويدى « نورد نسكولد » « كشف جرينلند » تحركت فيه غريزته التواقة إلى المغامرة وفى عام ١٨٨٦ وفى بحر شبابه طلب من قيادته تصريحاً بالانضمام إلى إحدى البعثات الكشفية الموفدة إلى جرينلند وعاد من هذه الرحلة وحمى كشف المناطق القطبية تجرى فى دمائه وتبلورت فكرة القطب الشمالى فى رأس هذا الرحالة الجرئ واستحوذت على وجدانه وشعوره حتى أنه ألقى ١٦٨ محاضرة فى ٩٦ يوماً يشرح وجهة نظره ويحاول إقناع الرأى العام بنجاحها المؤكد، والتف الكثيرون حوله من المواطنين وأقاموا نادياً باسمه فى وشنطون أطلقوا عليه اسم « نادى بيرى القطبى » وبدءوا بجمعون التبرعات التى انهالت على النادى من كل صوب حتى تم بناء السفينة روزفلت اسم رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت « تيودور روزفلت » .

وقد تناول المؤلف كفاح هذا المكتشف العظيم الذى كان يقابل الشدائد بصدر رحب ونفس راضية مرضية فى سبيل اتمام كشوفه إذ تجمدت قدماه فى بعثة وكسر ساقه فى بعثة أخرى، فلم يثنه ذلك عن عزمه والوصول إلى أهدافه.

وقد أقلع بيرى بسفينته « روزفلت » فى ٢٦ يوليو عام ١٩٠٨ من مدينة نيويورك بين الهتاف والتهليل وصفارات السفن الراسية فى الميناء وهى تحى السفينة فى رحلة العمر، وقد استطاعت أن تصل إلى القطب الشمالى الحقيقى وتعود فى ١٨ يوليو عام ١٩٠٩ بعد أن نجحت فى أداء مهمتها وطارت أنباء انتصاراتها فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد كتب بيرى فى مذكراته : « لقد وصلت القطب مع رجل أبيض وزنجى وأربعة من الجنس الأصفر . . ووضح أمامى القطب الشمالى الحقيقى أمل أربعة قرون مضت ، وأملى أنا وحلمى لعشرين سنة ، لقد ملكته فى النهاية ، حقاً ، إنه لا يأس مع الحياة ، إننى لا أكاد أصدق عينى ، هل هو حلم أو حقيقة ؟ لقد أصبح الأمر فى نظرى الآن أهون بكثير مما تخيلته على مر السنين » .

هذا قليل من كثير مما تضمنه هذا الكتاب الشائق الذى ألفه الطيار السيد المغربى عن أهوال فى الطريق إلى القطب الشمالى وهو كتاب يبث الشجاعة فى نفوس الشباب ويرسخ فى الأذهان لا مستحيل مع الحياة. بيد أن

[السيد المؤلف فاته أو مر مرور الكرام على بعض المحاولات الجريئة فى الكشف عن القطب الشمالى، ولا سيما من بعض الطيارين ومنهم نوبيل وأموندسون ، وولكنز] .

وكان نوبيلي يقصد ارتياد القطب الشمالي لكي يدور حول التخوم الشمالية لآسيا وأوربا وأمريكا، وذلك بأن يجعل خليج الملك مركزاً يرتاد شرقه وغربه ، وقد اختار هذا الخليج لأن الذين سبقوه مثل اموندسون وغيره قد أقاموا هناك صارياً لربط البلونات ، وقد رافق هو نفسه اموندسون فى رحلته إلى القطب الشمالي وعرف أحواله ومناخه، ولذلك فإنه رحل إليه وهو واثق من نفسه كل الثقة ، وكان بين رجاله عالمان وأربعة من الميكانيكيين وبحاره ومعه زوارق من الكوتشوك وزلاقات قدمية يسير بها الإنسان على الثلج معتمداً على العكازات كما حمل معه بعض البنادق والخراطيش والمؤن .

وقد خرج البالون من إيطاليا يحمل نوبيلي ورجاله إلى الشمال حتى بلغ استراسبورج وهى أقرب بلدة فى الشمال ثم وثب منها إلى خليج الملك فبلغه فى ٦ يونيو عام ١٩٢٨ ، وكان طول هذا الوقت يتخاطب مع العالم بالراديوغراف ، وشرع عندئذ يستعد لارتياد الشرق فسار إلى ناحية الشرق الشمالي مسافة طويلة ثم اتجه إلى الجنوب حتى بلغ جزيرة زمبل الجديدة، ثم اتجه إلى الغرب فعاد إلى خليج الملك ومن هناك اتجه نحو الشمال فبلغ القطب وعاد منه أيضاً إلى خليج الملك ، بينما هو يستعد لارتياد المنطقة الغربية هبت ريح عاتية وتراكم الثلج فوق البالون حتى أثقله وكاد البالون يمس الأرض ويدفن فى الثلج ، ولكنهم نفخوه بالغازات فخف وارتفع وقد نزلت بعد ذلك بالبالون كارثة كبيرة فدفعت الشهامة اموندسون وهو رجل فى السبعين أن يطير إلى نوبيلي ليبحث عنه ، وكانت الحكومة الإيطالية أجدر الحكومات بالعناية بهذا البطل الايطالي ورفقائه ولذلك أوفدت الطائرات للبحث عنه وبعد بحث طويل تمكنوا من العثور عليه وألقوا إليه الأطعمة .

[وقد قام المنطاد تسبلين فى ٢٤ يوليو عام ١٩٣١ برحلة إلى القطب الشمالي تعتبر من أهم الرحلات القطبية] .



وقد بدء المنطاد رحلته فى الساعة التاسعة والدقيقة خمسين من صباح هذا اليوم وحلق فوق بحيرة « كونستانس » وبدأ الرحلة الأولى من سفره إلى القطب ، وفى الساعة ٤ والدقيقة ٣٠ ظهر فى جو برلين وبعد ساعة ونصف من ذلك وصل إلى مطار ستاكن حيث بات رجاله وفى صباح الغد عند الساعة الرابعة والدقيقة ٤٠ طار صوب لينجراد عن طريق شاطئ السويد فبحر البلطيق فجزيرة جرتلاند فريجا ، فهسنجفورس حتى إذا كانت الساعة ٨ والدقيقة ٤٠ من نفس اليوم وصل إلى مطار لينجراد ثم حلق فى الجو قاصداً إلى القطب ، وقد قطع عدة ساعات فوق منطقة الغابات الشاسعة الممتدة من السويد إلى كامتشاتكا وهى منطقة يبلغ طولها نحو ١٥٥٠ كيلو متراً تتخللها بحيرات وأنهار وفيها أجزاء غير معروفة .

واكتشف الدكتور « اكنر » قائد المنطاد الباسل فى جنوب بحيرة « أونيجا » جبلاً ارتفاعه ٤٠٠ متر وهو غير مذكور فى أى خريطة جغرافية .

وقد تخطى المنطاد الدائرة القطبية فى الدقيقة الخامسة والعشرين بعد الثامنة ولم يسر المنطاد قليلا فى جو المنطقة المتجمدة حتى وجد حرارة الجو ٤ درجات فوق الصفر فساعده ذلك على مواصلة الطيران على ارتفاع يتراوح بين ٥٠٠ وألف متر وبفضل تلك الدرجة من الحرارة لم يتكون صقيع فوق المنطاد وبذا نجا من أكبر خطر يهدد المناطيد فى المنطقة القطبية .

وقد رأى راكبو المنطاد فى الجزء الأكبر من الرحلة كتلا من الثلج سابحة على بعد ٢٥٠ كيلو متراً فى جنوبى أرض فرنسوا جوزيف .

وفى الساعة الثانية عشرة من يوم ٢٧ يوليو هبط المنطاد فى شكل حلزونى حتى صار على علو ٨٠ متراً من الأرض فرمى مرسيبه واستند عليها بمؤخرته بينما لمس بمقدمته البحر ، وفى ذلك الوقت كانت السفينة ماليجين قد وصلت إلى أرض فرنسوا جوزيف ورست أمام جزيرة هوكر فأرسلت إلى المنطاد قارباً يحمل إليه زكائب البريد ، وكان الجنرال نوبيلى بطل كارثة المنطاد « إيطاليا » المعروفة قد أتى على ظهر الباخرة « مالبجين » لكى يبحث عن جثث رفاقه فى هذه الرحلة المشئومة فانضم إلى ركاب المنطاد ووجد نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام السورث زميله فى المنطاد إيطاليا وكانا لم يتقابلا معاً منذ أن صحبا أموندسن فى رحلته القطبية على ظهر السفينة « نورج » .

ثم حلق المنطاد فوق أرخبيل فرنسوا جوزيف قاصداً أرض الشمال الغامضة فوصل إليها فى صباح الثلاثاء ٢٨ يوليو ١٩٣١ وكان من أغراض المنطاد فى الوصول إلى هذه المنطقة انزال مظلة الهبوط حاملة البريد والزاد إلى المكتشفين الأربعة البواسل الذين مكثوا أحد عشر شهراً فى جزيرة كامنيف لكى يرصدوا التقلبات الجوية ، غير أن الضباب كان مخيما فلم يمكن الاهتداء إلى المرصد الذى أقاموه .

وبعد أن طار المنطاد فوق أرض الشمال اتجه نحو الجنوب بادئاً طريق الاياب فوصل بعد ساعات إلى حافة القارة الأسيوية عند رأس شليوسكين ، واستمر طائراً فوق شبه جزيرة « تايمر » حتى وصل إلى فوق محطة جزيرة « ديكسون » فرمى بواسطة مظلة الهبوط البريد المرسل إلى أهل جزيرة كامنيف والمكتشفين الأبطال القابعين هناك ، ثم اتجه المنطاد إلى زمليا الجديدة ومنها إلى أرض نجلسك ، وفى اليوم التالى كان فى جو لينجراد ثم واصل رحلته إلى برلين .

ولم تكن رحلة المنطاد تسيلين هى الوحيدة كما لم تكن رحلة نوبيلى واكنر هى الوحيدة أيضاً ، بل كانت هناك رحلات بالغواصات إلى القطب الشمالى بحيث تستطيع الغواصة أن تخترق الجليد دون أى خطر حتى تصل إلى مرماها .

ولم يتفضل السيد المؤلف بتوضيح هذه الرحلات الحديثة أو غيرها من الرحلات الطائرة بوصفه أحد الطيارين المهتمين بموضوعات الطيران ولكن هذا لا يمنع من تسجيل اعترافنا بجهده القيم وعمله الكبير فى هذا الكتاب .

د . جمال الدين الرمادى

المفهوم الحديث لرجل الدولة

تأليف : دكتور حسن صعب

الناشر : المكتب التجاري - بيروت
١١٠ ص ١٤×٢٠سم - الثمن ١٥٠ قرشاً لبنانياً

عندما يكون عنوان الكتاب هو المفهوم الحديث لرجل الدولة دون أن يسعفك الكتاب ذاته بمفهوم واضح ومحدد لرجل الدولة فى العصر الحديث ، فهذا أمر يدعو إلى الحيرة والتساؤل .

أما الحيرة فوسط المفاهيم الكثيرة والمتعددة التى يمنحها لك الكتاب عن رجل الدولة عبر الأزمنة والتاريخ . وأما التساؤل فهو عن السبب الذى يجعلك بعد كل ذلك تعجز عن رسم صورة محددة وواضحة لرجل الدولة فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين .

صحيح أن رسم مثل هذه الصورة أمر عسير ، وصحيح أيضاً أن التنبؤ بما سوف تكون عليه نفس هذه الصورة خلال السنوات القادمة أمر أشد عسراً ، غير أنه صحيح كذلك أن المحاولة الصادقة والدءوب تصلان بنا دائماً فى نهاية الأمر إلى معرفة الحقيقة .

على أن هذه الحقيقة ذاتها شيء نسبي ، فليس ثمة حقيقة مطلقة أبداً ، وإذا كان الأمر كذلك



بالنسبة للعلم التجريبي حيث يمكن ضبط ظواهره كمياً ، فانه من الثابت أن يكون نفس الأمر أيضاً كذلك فى ميدان السياسة حيث يصعب فيها ذلك الضبط الكمى للأمور . من هنا كانت كل محاولات العلماء فى هذا المجال وكل مناهج البحث عندهم أمراً شاقاً ومضنياً .

وفى تقديرى أن شيئاً ما فى الكتاب جعله قاصراً عن رسم صورة كاملة وواضحة ومحددة لرجل الدولة فى العصر الحديث . ومهما أوتى المؤلف من محاولات أو أسعفته أساليب البحث ومناهجه ، فان ثمة شيئاً فى الكتاب كان كافياً لبعثرة كل الجهود وتشتيت كل ثمار تلك المحاولات ، ذلك أن الكتاب بالصورة التى بدا بها لم يسعفنا بمحصول فكرى معين بقدر ما بعثر علينا فى سخاء آراء متعددة من هنا ومن هناك .

[والمحصول الفكرى المعين شرط أساسى وجوهرى فى كل كتاب . وأياً كان الشكل الذى يمكن أن يظهر به كتاب كأن يكون مثلا « أسطوانة » أو « ميكرو فيلم » أو « ميكروفيش » أو الشكل العادى المألوف فإن ثمة محصولا فكرياً بالذات لا بد أن يخرج به القارئ أو المستمع فى نهاية مطافه مع الكتاب أو فى نهاية مطاف الكتاب معه] .

ولست هنا بصدد أن أعرف ماذا أقصد بالمحصول الفكرى المعين ، غير أنى أستطيع أن ألمس الأثر الناجم عن وجود أو عدم وجود ذلك المحصول الفكرى المعين . ففرق كبير بين أن أقرأ فى موسوعة أو دائرة معارف وبين أن أقرأ كتاباً ، فحين أقرأ فى موسوعة فأنا تماماً كمن يبحث عن معنى كلمة فى قاموس ، لا أتوقع من المؤلف أو مجموعة المؤلفين موقفاً عقلياً أو وجدانياً من الموضوع الذى يكتبون فيه . المؤلف هنا لا يفعل شيئاً أكثر من أنه يعرض محاصيل فكرية مبعثرة هنا وهناك فى حين أعتبر الكتاب شيئاً آخر ، أعتبره بالنسبة لمؤلفه موقفاً منه إزاء الموضوع الذى يتعرض له . هو جزء من عقله ووجدانه ، وبالتالى فهو لا بد أن يقدم لى محصولا فكرياً أعتبره ابناً شرعياً لهذا العقل وذلك الوجدان . من هنا كان الفراق بين أن أكتب لأعرض آراء وبين أن أكتب معبراً عن فكر نابع من فهم للأمور وإحساس بها .

على أنه ليس ثمة تناقض أبداً بين أن أكتب معبراً عن ذاتى وبين أن أتخذ فى نفس الوقت منهجاً علمياً يعيننى على أن أصل إلى غايتى ، فليس مما ينقض التعبير عن موقفى الفكرى أو الوجدانى أن آخذ بالمنهج العلمى وأساليبه فى البحث ، ولا يصير المنهج العلمى هنا غاية فى ذاته ، بل يصبح وسيلة إلى ما هو أعظم ، وهو التعبير عن فكر ووجدان ممتزجين معاً ويشكلان بالنسبة للكاتب ما أستطيع أن أطلق عليه اسم محصوله الفكرى المعين .

وهذا المحصول الفكرى المعين سمة من سمات الكتاب فى معناه الحديث ، بل لا أستطيع أن أفهم وجود كتاب دون أن ينبع منه موقف لكاتبه ، ولا أكون مغالياً إذا ما قلت إن موقف المؤلف فى كتابه يمثل جزءاً من دفعة للفكر قوية يسهم بها الكاتب مع غيره فيدفع بضع خطوات عالمه الذى ينبغى أن يعيش لأجله .

وحتى فى مجال البحث العلمى التجريبى فان ثمة فكرة معينة كالحلم لا بد أن تكون قد داعبت رأس العالم قبل أن يستطيع بالتجربة أن يثبت صحتها . ومثل تلك الفكرة وغيرها هى التى دفعت أرشميدس إلى أن يصرخ وهو فى الماء قائلا . . وجدتها . . . وجدتها . . وفى اعتقادى أن تلك الفكرة ما هى إلا نبتة صغيرة وليدة مزيج من إرهاصات الفنان وحدسه، مضافاً إليها الحقائق العلمية الثابتة التى استطاع العلم أن يقطع بصحتها بشكل حاسم . وفى رأيى أن أعظم الحقائق العلمية الثابتة داعبت وجدان أصحابها وهى مجرد نبتة بين الجنين ، مجرد رؤيا غير واضحة المعالم ، لا تلبث بالتجربة والبحث أن تتضح شيئاً فشيئاً لتصبح فيما بعد حقيقة ثابتة وكاملة تكون ما أسميه بالمحصول الفكرى المعين .

[ومع أن الدكتور صعب قد أثرانى بتعريفات كثيرة ومتعددة إلا أننى لم أستطع أن أخرج معه بتلك الصلة التى لابد أن تربط فكرينا معاً فى خيط واحد ، ذلك لأنه هو نفسه لم يمنحنى فكره إلا بالقدر المحدود ، بالقدر الذى لم يجعلنى أتمثل كل ما قدمه لى من أفكار] .

فهو قد منحنى أول ما منحنى مفهوم القائد عند بعض الشعوب .

هو الملك الإله عند قدماء المصريين ، مطلق الرياح الأربعة بحيث يستطيع كل إنسان أن يتنفس كأخيه الإنسان ، ومطلق الفيضان بحيث يستمتع الفقير بمثل ما يستمتع الغنى ، وصانع المساواة بين أبناء مملكته الواحدة .

وهو ابن الله أو صفيه عند الأشوريين والبابليين وهو مبعوث العناية الإلهية لتحقيق القدر التاريخى عند الشعب الألمانى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

ثم قدم لى أرسطو وابن خلدون وكيف التقيا معاً فكرياً عند نقطة هامة هى أنه لا تعميم فى السياسة ، فكل مجتمع له مفهومه الخاص لقائده .

وهو قد منحنى هيجل ورأيه القائل إن شخصية القائد لا بد أن تقترن بمبدأ ما .

ومنحنى مفهوم الجبريين لحتمية التطور والتاريخ ثم قدم لى مفهوم الاختياريين لعبقرية القائد الناشئة عن إصراره والقدرة الواعية على أن يتخذ القرارات .

ودلف من ذلك إلى مفهوم بعض الأمريكيين حين يقولون إن رجل الدولة هو صانع القرارات .

ثم تحدث الدكتور صعب عن مفاهيم متعددة للقائد فى ظل نظم مختلفة . فهو فى النظام الدكتاتورى غيره فى النظام الديمقراطى ، غيره فى النظام الاشتراكى وغيره فى النظام الرأسمالى ، وخرج من ذلك إلى أنه من الصعب أن نصل إلى مفهوم عام وحديث لرجل الدولة .

والمؤلف هنا يلتقى مع أرسطو وابن خلدون فى أن كلا منهما يؤمن بواقع الأمر ويتخذه أساساً لبحثه، وهو يحذر فى نفس الوقت من الدخول فى التجريدات السياسية ، ومع ذلك فقد أشار الكتاب إلى ضرورة أن يمتلك القائد تحت أى نظام من النظم نوعاً من الحساسية الاجتماعية، تميزه عن سائر الأفراد وتجعله قادراً على معرفة احتياجات شعبه وبلده تحت ظروف معينة .

على أن المؤلف فى أكثر من موضع فى الكتاب كان يعزو للمفكر العربى ابن خلدون أنه عبد

الطريق لولوج باب البحث الاستقرائى الحديث فى موضوع القيادة ورجل الدولة ، فرغم أن ابن خلدون حذر من التعميم ومن الانزلاق فى اختيار مفهوم موحد لرجل الدولة إلا أن وسائله المنهجية التى اتخذها هى ذاتها التى فتحت لنا أبواب تساؤلات كثيرة مثل هل رجل الدولة هو الزعيم ، أم أن الزعيم شىء آخر . هل هو الذى يقود المجتمع أم أنه هو السياسى الذى ينقاد لقوى ذلك المجتمع ومؤسساته وتياراته . هل هو يعترف بالواقع أم يتجاهله ، وإذا كان معترفاً به فهل هو يخضع له ام انه يستخدمه للسير به نحو وضع أفضل. هل هو ذلك الذى يملك مجرد جاذبية شخصية أم أنه هو ذلك الرجل الخلاق الذى تعتمد قيادته على قيم معينة وبرنامج منهجى معين ، ثم هل هو صانع للتاريخ أم هو من صنائع التاريخ .

يقول هيجل ، القائد الفرد ليس فى جوهره إلا المنفذ لإرادة التاريخ المطلقة . هنا يبرز الخلاف بين الجبريين والاختياريين .

الجبريون أياً كانوا دينيين أو طبيعيين أو مثاليين أو ماديين لا يرون فى القائد الفرد إلا العامل بأمر قوى حتمية .

أما الاختياريون فهم يرفعون من دور البطل أو القائد فى التاريخ . فولادة البطل عندهم هى وحدها الصدفة ، أما كل ما ينبثق منه ومن عبقريته فانما هو خالق للتاريخ ، والقائد بهذا المعنى يعد مجسما لإرادته هو فى مواطنيه .

ويميل المؤلف إلى أن يأخذ بهذه النظرة الاختيارية فهو يعتبرها أقرب من غيرها إلى تصورنا العربى . ويورد أمثلة على ذلك فيقول إن الهزيمة العربية فى فلسطين لم تكن قدراً محتوماً ، بل كان هناك احتمالا للنصر أكبر من احتمال الاندحار لولا تقاعس القيادة العربية وتخاذلها . كما أن احتمالى الهزيمة والنصر عندما قام العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ برزا معاً بشكل واضح وعلى قدر من المساواة واحد لولا أن صمود القيادة المصرية حينذاك رجح إمكان النصر .

ولعل أهم ما ورد فى الكتاب ما جاء خاصاً بالديمقراطية والحكم الإسلامى ، فقد تعرض فيه المؤلف لرأى الأستاذ على عبد الرازق القائل بأنه :

[ليس ثمة خلافة فى الإسلام وأنه لا شىء فى الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى فى علوم الاجتماع والسياسة ، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذى استكانوا إليه وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية] .

ثم عاد المؤلف يقول إنه إذا كان هذا هو حكم الإسلام كما تصوره الأستاذ على عبد الرازق ، إلا أنه ليس حكم التاريخ الإسلامى إذ نجد أشكال الحكم فى الإسلام كما يلى :

الشكل النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

الشكل الخلافى فى عهد الخلفاء الراشدين .

الشكل الملكى فى عهود من هم بعد الخلفاء .

ثم الشكل السلطانى والامارى اللذين انبثقا عن العهد الملكى .

ويختم المؤلف كلامه قائلا إنه إذا كان شكل الحكم فى الإسلام ليس غاية فى ذاته ، بل وسيلة إلى تنفيذ شرع إلهى فأى اقتباس لشكل من أشكال الحكم لا يعد كافياً ما لم يقم أساساً على إسعاد الإنسان والابقاء على فكرة قبوله عمل الخير والشر وفكرة تعرضه للتجربة والخطأ .

وفى باب عن نزعات التحرر فى المجتمع العربى تحدث الكاتب عن دوافع هذا التحرر ، فقال إن الدافع إليه قد يكون مصدره الدين أو العقل أو الضرورة

الاقتصادية، ثم يقرر أننا نعيش فى تناقض بين فكر متقدم وواقع متخلف مما يجعل أمر تحررنا ضرورياً، ومع أن التحدى الشيوعى يبرز دائماً ليبدو عملاقاً وقادراً على إبادة هذا التناقض إلا أن الشيوعية ذاتها كل خاطئ فهى تستأصل الإنسان من جذوره الإلهية، وهى تفسر التاريخ على ضوء الصراع الطبقى، وتفسر تركيب المجتمع من خلال وسائل الإنتاج، ثم هى فى نهاية الأمر تعلن أن الحاجات المادية هى التى تسير الإنسان وليست حاجاته النفسية والروحية.

على أن أروع ما قدمه الدكتور صعب فى كتابه هو ذلك الفصل الخــاص بالمفهوم العلمى الحديث للعمل العام، فهو قد أوضح فيه سخف التصور الثنائى بين العمل الخاص والعمل العام، وكيف أن هذا التصور الثنائى مسئول عن الهوة السحيقة التى تفصل بين الفرد والدولة. فكل منا له عمل عام إلى جانب عمله الخاص، وينبغى ألا يطغى العمل الخاص على العمل العام وإلا سيؤدى بنا ذلك إلى السلبية أو العدمية الاجتماعية.

وهو يقول: أنا أكافح وأعمل، وغيرى يكافح ويعمل، فكلنا إخوة فى الكفاح والعمل. وبهذا يتعذر على أن أكون إنسانين، أحدهما لعملى الخاص والآخر لعملى العام. هذا المفهوم هو الذى يربط بيننا فى دولة واحدة، وبغير هذا المفهوم نصير أكثر من دولة داخل الدولة الواحدة، وبغيره أيضاً يظل بلدنا مليئاً بالتناقضات..

هنا نبض فنان ووميض مفكر. مزيج لم تخطئه الرؤية. الحماس فيه لم يفقده تفكيره المتئد، وبقدر ما كان المؤلف فى هذا الفصل حاراً ومتدفقاً بقدر ما كانت رؤيته إلى الأمور واضحة وسليمة.

على أن الكاتب فى بقية فصول الكتاب، إلا فى صفحات قليلة منه، لم يمنحنى ذلك الخيط الرفيع الذى يشد فكرينا ووجداننا معاً، وذلك رغم المادة العلمية الغزيرة والباقة الزاخرة بكل غال وثمين.

وفى تقديرى أن ما دفع بالكتاب إلى هذا هو الصورة التى خرج بها. فهو فى حقيقته ليس إلا مجموعة مقالات أو محاضرات ألقيت فى حلقات دراسية أو فى قاعات بعض الجمعيات ضمن برامج ثقافية معينة. ولا أظن أن جمع هذه المقالات أو تلك المحاضرات فى كتاب بقادر أبداً على أن يربط فيما بينها بهدف ذلك الذى ما زلت مصراً على تسميته باسم المحصول الفكرى المعين.

ومع ذلك فمن خلال هذه الباقة يستطيع القارئ أن يتلمس الرؤية بنفسه ليكتشف بنفسه أيضاً سر رجل الدولة كما يمكن أن يكون. لم يكتب له المؤلف كل شيء رغم الكثير الذى كتبه فاضطره تبعاً لذلك إلى أن ينفرد بنفسه ليبحث عن كل شيء، ومن هنا تنبت دائماً حقيقة الأشياء راسخة وعميقة الجذور.

ومهما كانت الصعوبة التى لاقاها المؤلف فى تصوير ما ينبغى أن يكون عليه رجل الدولة، فان ثمة صورة قد انبثقت من خلال ما حمله الكتاب إلينا، صورة أغلب ظنى أن الضباب يحوم حولها نوعاً، لكنها أبداً لم تكتمل أو تتضح، بل ترك ذلك ليتصوره القارئ بنفسه، ثم يحققه مجسما فى النظام الذى يقترع عليه.

على أنه إذا كان الكتاب لم يمنحنا الصورة كاملة، أو إذا كانت تلك الصورة ذاتها لم تكتمل بعد أو تنضج، فان القدر الذى منحه لنا الكتاب لكفيل بأن يمدنا بوجهة نظر لنا تختلف.

[فليس مما ينفع الناس أن يكون القائد مجسما لإرادته هو فى مواطنيه، وليس من دور رجل الدولة أو القائد أن يصنع التاريخ، فالتاريخ حركة وتطور يسهم فى دفعهما وعى الشعوب وإرادتها. وليس

مثل هتلر عنا ببعيد ، فهو القائد الذى جسم إرادته فى الشعب الألمانى فى أكثر من جيل ، وهو نفسه الذى قاد بلده إلى الهاوية والخراب ، وهو نفسه أيضاً الذى بث روح الفاشية المسمومة فى نفوس اليافعين وغير اليافعين] .

وفى تقديرى أن الشعب الألمانى مسئول عما فعله به هتلر مسئولية كاملة ، وإذا كنت أتفق مع الجبريين فى قولهم إن القائد يمثل مرحلة حتمية من مراحل الحضارة ويعمل بأمر قوى حتمية غير أن ذلك لا يعفى الشعب من إرادته .

[إن المغير الحقيقى للواقع هو الشعب وليس القائد ، لكن ذلك لا ينفى أن الواقع الحضارى المعين هو الذى يفرض قائداً بالذات ، فلكل مرحلة حضارية قائدها ، ولا فائدة على الاطلاق من وجود قائد متقدم فكرياً فى واقع حضارى متخلف] .

فلا يمكن أن تكون الهزيمة العربية فى فلسطين عام ١٩٤٨ إلا نتيجة حتمية لتخلف حضارى فى مرحلة معينة من مراحل التطور العربى ، وإذا كانت القوى الثورية فى مصر قد استطاعت أن تنتصر على عدوان ثلاث دول عام ١٩٥٦ فلأنها قوى ثورية تعبر عن مرحلة حضارية متقدمة .

خلاصة القول أن الشعوب هى التى تصنع المرحلة الحضارية وبالتالى فان المرحلة الحضارية هى التى تفرض قائدها ، ولن يأتى ذلك القائد بجديد أبداً ، بل إن طبيعة المرحلة الحضارية التى يمر بها الشعب هى التى تفرض نظرية بالذات ومنهجاً فكرياً معيناً يتخذه القائد قاعدة فكرية له يفرضه الواقع الذى يعيشه مواطنوه

[لذلك فإن خرافة الزعيم الروحى يجب أن تنتهى ليحل محلها نظرة موضوعية للأمور ، فالمنهج الذى يقوم على أساس من الفكر يفرضه الواقع الحضارى هو الذى يبقى . الزبد يذهب جفاء ، أما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض] .

وليس من مصلحة أحد فى مرحلتنا المعاصرة أن نقول إن القائد هو الذى يصنع التاريخ ، فلا العلم يؤيد ذلك ولا الشواهد العملية تسنده . وها هى حركات الشعوب فى أفريقيا وآسيا تؤكد أنها هى التى تصنع التاريخ . صحيح أن وراء كل حركة من تلك الحركات قائد ، غير أن ذلك القائد لا يفعل أكثر من أنه ممل لإرادة مرحلة حضارية يمر بها شعبه ، وما هذه المرحلة الحضارية إلا حركة حتمية لتطور التاريخ ثم وعى وإدراك بها بين أفراد الشعب .

إن أروع ما فى زعامة عبد الناصر أنه دائماً يبحث عن القيادات وسط الجماهير ، فهو يدرك تماماً أنه لا أحد يستطيع أن يحمى مكاسبنا الاشتراكية سوى ملايين الأفراد الكادحين فى الحقل أو فى المصنع . من بينهم ينبغى أن يتكون القادة ، ومن بينهم ينبغى أن ينشأ سلوك اشتراكى عارم قائم على قاعدة فكرية يؤمنون بها .

ذلك هو ما ينبغى أن يكون مفهومنا للقيـادة بمعناها الحديث ، قاعدة عريضة ترتكز بوعى على فكر ، وتستطيع بذلك الوعى أن تعبر عن حركة تاريخ وواقع حضارى .

ولست الآن بصدد أن أعترض على هجوم الكاتب على بعض النظم أو أدفع أذى عن بعضها الآخر ، لكننى آخذ عليه اقتضابه فى هذا الهجوم مما أدى إلى اندفاعه وتسرعه ، الأمر الذى أخل بالمنهج العلمى الذى اتبعه لنفسه ، فبدا مثل دون كيشوت تصور أذى أمامه فراح يحارب طواحين الهواء .

سمعان اسكندر

فن القيادة والتوجيه

● تأليف : أردواى تيد

ترجمة :
● العميد ا ح . محمد عبد الفتاح ابراهيم

تداول الحديث وانتشر فى هذه المرحلة – التى ازداد الإهتمام فيها بالصناعة والتصنيع والتحرر الاقتصادى والسياسى – عن القيادة والتوجيه وإدارة الأعمال والبحث عن القادة الموجهين ، والإداريين الأكفاء الذين يستطيعون القيام بأعباء ما يسند إليهم ، والسير فى ركب التقدم والنهضات العلمية والعملية . والاهتمام بالتوجيه لم يكن وليد الساعة أو قاصراً على النطاق المحلى . ولكنه أثار انتباه الدول الناهضة على الصعيد الدولى – للعمل على رفع مستوى الكفاية والإنتاج – ووضع الرجل المناسب فى العمل المناسب للاستفادة منه وإفادة الحقل الذى يعمل فيه .

وإذا اتجهنا بأنظارنا خارج أسوار الجمهورية وجدنا أن بعض الدول التى سبقتنا فى ميدان الصناعة والمدنية كأمريكا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا قد اعتبرت التدريب والتوجيه والارشاد لجميع العاملين أسلوباً واجب التنفيذ لتخريج القيادات المهنية والإدارية الممتازة التى تطمئن الهيئات والمؤسسات إليها فى تقلد المناصب الرئيسية . وبلغ اهتمامها بهذا الموضوع إلى حد إنشاء المعاهد العلمية والمراكز التدريبية لدراسة وسائل الكشف عن القادة وتدريب الصفوف المتعاقبة – وفقاً لقدراتهم الخاصة ، واستعداداتهم الفطرية والمكتسبة ، والمستحدث فى كل مهنة من اكتشافات وابتكارات ، والجديد فى وسائل الدعاية والإعلام وإدارة الأعمال ودور العلاقات الإنسانية فى الربط بين جميع هذه الأسباب .

ومن المعاهد والمنظمات التى لها دور إيجابى فى هذا الميدان . مؤسسات « ماك جروهيل » ، « روكفلر » الأمريكية ، ومؤسسات التنظيم والإدارة بنيويورك ، لندن ، ليبزج . وقد أثبتت هـــذه

الناشر :

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

المنظمات — عن طريق الأبحاث الميدانية والعلمية ، والتجارب والمقاييس المقننة — أن التوجيه والإرشاد والتدريب هى الوسائل الفعالة فى الكشف عن القيادات الإيجابية ، واستقصاء طبيعة المواقف التى تبرز القدرات والمواهب والاستعدادات .

لقد عنيت الدولة بعقد المؤتمرات الفنية والعلمية والإدارية التى تناقش خطة التنمية والكفاية ، وكيفية زيادة الموارد ، وما إلى ذلك لحل المعادلات الصعبة التى تفرضها الزيادة المضطردة فى النسل مع عدم تعادل التقدم فى الإنتاج والموارد لهذه الزيادة . وهذا الاهتمام يعد من الدلائل القاطعة على تقدير العبء الملقى على الرؤساء والقادة والموجهين الذين يستخلصون الوسائل الكفيلة بالرقى بمستوى العمل والإنتاج — وجمع خلاصة أبحاثهم وعصارة أفكارهم وتسجيلها فى صورة قرارات قابلة للتنفيذ على المدى القريب والبعيد — ووضعها موضع الاعتبار عند التخطيط والتنسيق والتنظيم .

واردواى تيد Ordway Tead مؤلف كتاب فن القيادة "The Art of Leadership" الذى نعنيه فى هذه العجالة من الكلمات للتعبير عن موضوع يدور بخلد كل مهتم بالتوجيه وإدارة الأعمال — تقلد الكثير من المناصب التى أسبغت على بحثه الكثير من نواحى التعمق والأصالة فى الفكرة والنتائج — فقد عمل مديراً لقسم النشر بمؤسسة « ماك جردهيل » الأمريكية ، ورئيساً لمجلس التعليم العالى بمدينة نيويورك ، وأستاذاً بجامعة كولومبيا . وأخرج فى عالم الكتب عدداً من المؤلفات التى تشهد بدرايته فى ميادين الإدارة منها « فن الإدارة » ، « الطبيعة البشرية والإدارة » — هذا فضلا عن أبحاثه الميدانية والأكاديمية واشتغاله بالاستشارات والبحوث الصناعية . كل هذا وغيره جعل رأيه فى التوجيه والإدارة يعتد به فى الأوساط العلمية والمهنية ، ويرجع إليه فى حل المشكلات التى يتعرض لها القادة والمسئولون عن إدارة المؤسسات والهيئات .

وكتاب « فن القيادة والتوجيه » بذل فيه المترجم السيد العميد محمد عبد الفتاح إبراهيم جهداً يستحق عليهما الثناء والتقدير من كل قارئ للأمانة اللفظية والموضوعية ، التى تناول من خلالها ترجمة هذا الكتاب وترتيب الموضوعات . ولو أننى من وجهة نظرى سأتناول ما كان يجب على المؤلف اتباعه فى تسلسل أبواب الكتاب وهذا النقد والتعقيب يتعلق باردواى تيد المؤلف وليس بالمترجم .

والكتاب يقع فى ٢٦١ صفحة من القطع المتوسط موزعة على ستة عشر فصلا . تتناول الحاجة إلى القيادة ، تعريفها وكيفية تكوين القادة وتأثيرهم فى الغير وأهداف القائد والصفات الواجب توافرها فيه كادارى وكمعلم وكرئيس للمؤتمرات والمؤسسات

والهيئات ، والمشكلات التى تصادفه أو يتعرض لها فى ميادين عمله . كما وأن المؤلف قد تعرض لموضوع هام حساس — وهو القيادات النسائية (ص ٢٠٧ — ٢٢٢) ومدى نجاح المرأة فى تصريف أمورها كقائدة — لا سيما وأن هذه التجربة قد مر بها الكثير من الدول المتقدمة وعركت مضمارها وخرجت منها بنتائج مثيرة فى الوقت الذى أقدمت الدول النامية على هذه التجربة بحذر وترقب وانتظار لمدى ما تسفر عنه المرأة من نجح وصمود فى قياداتها . وهل التفرقة الجنسية والعضوية ، وما بين الرجل والمرأة من اختلاف فى الاستعدادات والخبرات والامكانيات يعد دليلا على أن الرجل أكفأ من المرأة فى القيادة وإدارة الأعمال — أو أن الأثنين سواء بسواء ما دامت الظروف والملابسات المحيطة بالاثنين متكافئة فى الفرص .

أم أن المرأة تصلح لقيادات معينة قد لا ينفع فيها الرجل — أو يكون أقل منها مقدرة على القيام بأعبائها .

هذه الأسئلة وتلك الاستفسارات والاحتمالات يتدخل فيها علم النفس ببعض نظرياته التى تؤيد المرأة فى كثير من المواقف . « ثورنديك » بنظرياته فى النمو العقلى ينادى بأن الفتاة تكتمل نموها العقلى فى سن الثامنة عشرة وتستمر فى التحصيل حتى سن الخامسة والأربعين — بينما الفتى يكتمل نموه العقلى فى سن السادسة عشرة ويستمر فى التحصيل حتى الأربعين . ومعنى هذا أن الفتاة تتأخر سنتين فى بداية النمو وتتقدم فى مرحلة الاحتفاظ بالتحصيل خمسة أعوام . وهذا الفارق يدعوها إلى الاستمرار فى الاحتفاظ بقدر كبير من المعلومات والخبرات عن الفتى الذى يتفق واياها فى الفرص المتكافئة ، هذا بالإضافة إلى بقية منطوق نظرية « ثورنديك » التى تعبر عن أن العقل البشرى يبدأ فى فقدان القدرة على الحفظ بنسبة ١/٢ ٪ كل سنة بعد سن الستين .

[وبعملية حسابية بسيطة يتضح أن المرأة تفوق الرجل فى القدرة على تخزين المعلومات التى تفيدها فى أعمالها وحياتها الخاصة والعامة . هذا بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والاعباء الملقاة على كاهل الرجل نتيجة العادات والتقاليد التى يحتمها المجتمع وتفرضها الظروف].

والتى ما زالت عالقة بالأذهان كاعتبار الرجال قوامين على النساء وأنهم أكثر احتمالا وصلابة لمجابهة المواقف الصعبة الخشنة . تلك الأمور دعت الرجال تلقائياً للتعرض إلى القيادة بينما تتخلى المرأة ذاتياً أو اجتماعياً أو تقليدياً عنها — لا هروباً من المواقف ولكنه ارتكاناً عليها حتى تخلو إلى ما يوكل إليها من أعمال . هذا فضلا عن احساس المرأة بعدم تقبل بنات جنسها لإدارتها لهن وتفضيلهن للقادة من الرجال، وهذه غيرة جنسية تحتمها قصر الفترة التى خاضت فيها المرأة ميادين الأعمال العامة ، والحجب والأستار التى ضربت من حولها . وقد دلل على ذلك المؤلف اردواى تيد فى الفصل الثالث عشر من كتابه ص ٢٠٧ — ٢٢٢ . وليس هذا المسلك بغريب على المرأة أو بقاصر عليها . وهذه الظاهرة كثيراً ما نلمحها فى محيط الرجال وقياداتهم . فالقائد المنتخب الأقل تكويناً واستعداداً لجماعة من الرجال المتفوقين عنه فى عنصر أو عناصر من أسباب التفوق كثيراً ما توضع أمامه العراقيل والعقبات للتخلص منه .

عرف المؤلف القيادة بأنها :

[الجهد والعمل للتأثير فى الناس وجعلهم يتعاونون لتحقيق هدف يرغبون كلهم فى تحقيقه ويجدونه صالحاً لهم جميعاً ، وهم يرتبطون معاً فى مجموعة واحدة متعاونة] .

هذا تعريف جميل ورأى صائب من آراء « اردواى تيد » . ولكنه ينقصه الربط بين الجهد والعمل من جانب ، وبين الخبرات والاستعدادات الشخصية التى تكفل تحقيق الأهداف ، وكذا بينهما وبين الأهداف التى ترغب الجماعة فى تحقيقها ومدى ملاءمتها ، واتجاهات المجتمع الذى يضم تلك الجماعة والتقاليد المرعية والمعايير والقيم السائدة فى هـــذا المجتمع — وكذا الفروق الواضحة بين القيـــادات المختلفة « كالقيادة الموجهة » ، « الرياسة الآمرة » ، « القيادة الإنشائية » — ولو أن المؤلف قد تناول هذه الفروق فى كل من الفصل الثانى والسادس والتاسع إلا أنه كان من الأفضل أن يتضمنها باب واحد جامع لأسبابها وتفصيلاتها .

هذا ويلاحظ أن المؤلف قد أفرد أبواباً ثلاثة لموضوعات متداخلة وهى « كيف يكون النـــاس قادة » ، « الصفات الضرورية للقادة » ، « وسائل وأساليب وأنماط القيادة » .

وهذه الأبواب أو الفصول متداخلة فى بعضها البعض فى التعريف والمقومات ، ويحسن أن تكون باباً واحداً تحت عنوان « مقومات القائد والصفات الواجب توافرها فيه » . وذلك تيسيراً للباحث فى الالمام بموضوعاتها والاستفادة منها بدلا من تشتيت ذهنه فى حصر إطارها . وهذا لون من ألوان فن التأليف والكتابة .

وفى الفصل التاسع « وسائل وأساليب وأنماط القيادة » وضع المؤلف رءوساً للموضوعات التالية :

— إصدار الأوامر .
— التوبيخ .
— الامتداح .
— الاحتفاظ بالسلوك الشخصى الصحيح .
— الحصول على المقترحات .
— تقوية الحس بوحدة الجماعة .
— العناية بالانضمام إلى الجماعة .
— خلق نظام ضبط النفس فى الجماعة .
— تهدئة وتلطيف الشائعات الزائفة .

على أنها أساليب وأنماط للقيادة . ولكنها فى مجموعها وسائل فقط للقيادة وإدارة الأعمال . وذلك لأن هذه الموضوعات لازمة فى التوجيه وسير العمل ، ولو أنها ربما لا تستغل جميعها فى وقت واحد بينما يستغل بعضها معاً وفقاً لظروف العمل والوقت المحدد للتنفيذ وحالة العاملين ونوع العمل وطبيعته ، والعلاقات الإنسانية بين القائد والمقودين .

وفى النهاية فالقائد الناجح هو من تتوافر لديه خواص معينة تؤهله للتكيف وجميع المواقف وتطوير طاقاته وخبراته وإبرازها فى عمله والجماعات ، مع الاجتهاد وتنمية المعلومات المتصلة بالعمل والبيئة المحيطة والاخلاص المشبوب بالحماسة والاقتناع عن وعى وكفاية .

ومن أجمل ما قيل على لسان المؤلف فى هذا المجـــال :

[إن القيادة ليست عملية استغلال الآخرين لغايات غير جوهرية ، إنها عملية معاونة الآخرين ليكتشفوا أنفسهم عن طريق تحقيق الأهداف التى تعتبر أصيلة ذاتية بالنسبة لهم ، والدليل على القيادة الناجحة هو النمو النوعى للمقودين كأفراد وكأعضاء فى الجماعة] .

ومن أهم الأبواب التى تضمنها المؤلف باب « الصفات الضرورية للقائد » وهى التى وردت تفصيلا فى الصفحات من ٣٣ — ١٠١ وتتبلور هذه الصفات فى الطاقة البدنية والنفسية ، والشعور بالغرض وبالاتجاه ، والحماسة للعمل والشغف به ، والصداقة والمودة السائدة بين العاملين والتكامل فى تأدية العمل بأمانة وحكمة ، والمهارة الفنية والعلمية مع البت فى الأمور ، والذكاء فى تصريفها والإيمان بقدسية العمل وأهميته .

وجميع هذه الصفات واضحة ومطروقة وشائعة وإن كان المجال يحوجنا إلى الضغط قليلا على صفتى الشعور بالغرض والاتجاه والتكامل فى تأدية العمل بأمانة وحكمة :

« صفة الشعور بالغرض وبالاتجاه » القصد منها توافر المعرفة بالأهداف والاتجاهات التى تتطلبها الجماعة والطريق إلى تحقيقها . وذلك بأن يتمكن القائد من تحديد هذه الاتجاهات والأهداف ، وأن يدرك تمام الادراك صلاحيتها للتداول مع الآخرين واجتذابها لاهتمامهم . ومتابعتها بكل اصرار وقوة حتى يدرك المقادون أن قيادته لهم قيادة متفاعلة مع أحاسيسهم . هذا مع الاعتبار بأن أغراض الجماعة يجب أن توضع موضع التقدير والبحث والمناقشة حتى إذا ما تبين قيمتها للجماعة ونفعها لهم جميعاً — حاول العمل على تحقيقها وتنفيذها بكل اخلاص مستعملا كافة الوسائل والجهود — وذلك لكى تستمسك الجماعة بقيادته والالتفاف حوله — وتبذل قصارى جهدها فى الاسهام فى العمل البناء .

وخلاصة القول فى هذا المجال يجب أن يكون القائد قادراً تمام المقدرة على ارضاء نفسه وارضاء الجماعة .

أما صفة « التكامل فى تأدية العمل » فمحورها الثقة التامة المتبادلة بين القائد وجماعته . وذلك لا يتأتى إلا بالاستقامة والنزاهة وطهارة الذمة والسلامة والصحة فى تنفيذ الوعود والارتباطات المتعلقة بالعاملين ، والسلوك القويم والشخصية السوية . والجماعة وقائدها فى هذا المضمار أشبه بالفريق الرياضى الذى ينزل أرض الملعب وجميع أفراده وحدة واحدة متماسكة . يتفانى فيها الفرد لخدمة الجماعة ورفع قدرها أمام الناظرين .

كما وأنه يحسن ألا يكون تقدمياً أو متخلفاً لدرجة أبعد بكثير عن جماعته ولا يكون موائماً مواءمة تامة فى كل موضوع . ولا يكون متطرفاً فى خلافاته معهم . ولكن يجب أن يكون متطوراً فى أفكاره بدرجة تشعر الجماعة بقبولها وتقبلها وادراكها بمفهوم تحقيقها واطمئنانهم إلى معقوليتها ومنطقها .

ولو أن التكامل فى حد ذاته موضوع شائك ومشكلة ليست بالسهلة الهينة لكل قائد ، إلا أنها ترجع إلى طاقات القائد وامكانياته البشرية والعلمية والمهنية والفنية التى يجب أن تتفاعل جميعها وتصهر فى بوتقة واحدة هى التكامل فيما بينها جميعاً لمصلحة الجماعة والقائد نفسه حتى يظل سيداً للموقف ومحتفظاً بقيادته .

وخلاصة القول فان القيادة والتوجيه فن رفيع يحتاج إلى مهارات خاصة وقدرات مميزة واستعدادات فطرية ومكتسبة . وخبرات عريضة عميقة تسمح فى مجموعها إلى خلق القائد الذى يسوس الجماعة بحكمة وكفاءة وبأسلوب متطور متجدد تقبله الجماعة وترضى عنه المجتمع ويعمل على تنميتها وتقدمها بفاعلية وطريقة بناءة .

وكتاب فن القيادة والتوجيه موضوع الحديث قد ألم بكثير من النقاط التى تخدم هذا الفن وتنير السبيل أمام كل متطلع للقيادة . والجماعات والهيئات المعنية بدراسة أساليب القيادة وإدارة الأعمال . كما تفيد فى حقل التدريب والتنظيم والتنسيق .

ولا غرو فالسيد المترجم قد خدم العربية بترجمته لكتاب « اردواى تيد » من الإنجليزية . فقد أضاف إلى المعرفة والثقافة سجلا عميقاً فى بحثه، عريضاً فى تناوله لمعظم جوانب ذلك الفن ، أصيلا فى أبحاثه وتجاربه التى أوردها المؤلف فى هذا الكتاب :

مراد السبطاسى

الكلمات



تأليف

جان بول سارتر

ترجمة : د. سهيل إدريس

الناشر : دار الآداب - بيروت

١٩٢ ص - من القطع الكبير

الكلمات

من أهم الكتب التى ظهرت حديثاً كتاب « الكلمات » لسارتر . و « الكلمات » من كتب السيرة الذاتية ، وهو بهذا الاعتبار أحدث كتب السيرة الذاتية التى ظهرت على المستوى العالمى ، ولم يحدث أن ظهر كتاب آخر ينافسه فى الحداثة إلا كتاب « قوة الأشياء » لسيمون دى بوفوار زوجة سارتر ورفيقة حياته وكفاحه . وكلنا نعرف سارتر مفكراً من كبار مفكرى القرن العشرين ، وعقائدياً أرسى قواعد مذهب من أهم مذاهب هذا القرن ولفترة أخرى قد تمتد وقد تقصر ، ولكنها كما يقول سارتر فى كتابه « نقد العقل الجدلى » : « فترة لن نتجاوزها حالياً إلا لو تجاوزنا مقومات العصر وأصوله » .

وينقسم كتاب « الكلمات » قسمين ، الأول يطلق عليه سارتر القراءة ، والثانى يسميه الكتابة . ويتناول الكتاب تجربة سارتر فى هذين الميدانين حتى سن العاشرة ، وهناك إحالة دائمة بين هذه الفترة وبين رجولة سارتر الحاضرة . وليس الكتاب تأريخاً لحياة سارتر الأسرية بالمعنى الذى أرخ به جيبون أو روسو لحياته ، وليس اعترافـات ، وليس ذكريات ، ولكنه تحليل للكيفية التى أحب بها سارتر نفسه فى « الكلمة » ، ولذلك أطلق على الكتاب اسم « الكلمات » .

ومع ذلك يتناول سارتر فى الكتاب الأصول الأبوية التى ولد منها ، فعن طريق هذه الأصول نبتت فى سارتر عادات ووراثات استمدها من المناخ التربوى والعنصرى الذى كبر فيه . ويركز سارتر على أسرة أمه أكثر من أسرة أبيه ، فقد مات أبوه وهو بعد طفل غرير وكفله جده لأمه البرت شفيتزر ، وشفيتزر من مواليد الألزاس ، وكما نعرف كانت هذه المقاطعة محل نزاع دائم بين ألمانيا وفرنسا ، فعندما تنتزعها ألمانيا من فرنسا يفد عليها الرعايا الألمان وتصبح الألمانية لغتها الرسمية . وإذا استعادتها فرنسا صارت الفرنسية هى لغة الأهالى والحكومة معاً . ولكن شفيتزر كما يبدو من اسمه كان من أصل ألمانى ، ولذلك فقد اختار أن يعلم الألمانية للشباب الفرنسى وأبدع لذلك طريقة ومنهجاً جديداً سمى باسمه .

وأنجب شفيتزر ابنة سماها آن مارى ، تعرفت إلى ضابط شاب من ضباط البحرية يسمى جان باتيست سارتر ، وتزوجها وهو يكاد يعدو وأولدها ابناً هو سارتر « وحاول أن يجد له ملجأ فى الموت » . ولم يكن الموت بالأمر العسير ، فقد كانت الحمى المعوية منتشرة ، ومرض هذا الضابط بسرعة بعد الزواج ، وكانت آن مارى تعنى به فى إخلاص « وآثرت أمى على غرار أمها الواجب على اللذة ، ولم تكن قد عرفت أبى كثيراً لا قبل الزواج ولا بعده فكان لا بد لها أحياناً أن تتساءل لماذا اختار هـذا الغريب أن يموت بين ذراعيها » .

ويقول سارتر عن أبيه « ليس هناك أب صالح . هذه قاعدة . ولا عيب على الرجال فى ذلك . العيب

يكمن فى صلة الأبوة وهى دائماً فاسدة . وليس هناك أفضل من إنجاب الأولاد ولكن الظلم أن يكون لنا نحن الرجال أولاداً ولو كان أبى قد عاش لكان قد مال على بكل جسمه ولسحقنى ، لكنى من حسن حظى أنه مات فى سن مبكرة » .

وقد تعهد شارل شفيتزر ابن بنته بالتربيــة والتعليم ، وحاول أن يلحقه بالمدرسة الابتدائية بسنة متقدمة ، لكن سارتر كان قد اعتاد الدراسة بالمنزل فأهمل عن قصد . وأرسلت إدارة المدرسة إلى الجد تطلب إليه إرجاع الطفل سارتر إلى سنة تلائم سنه ، وثار الجد وعاد سارتر إلى البيت ليحيطه بالشيوخ من أمثاله الذين لا ينطقون إلا الحكمة ، وكان سارتر يشبه الواحد منهم بأطلس الذى يحمل الدنيا ، ولم يكن يتخيل فرنسا بدونهم . وهو يقول إن الطفولة البورجوازية تعيش فى خلود اللحظة أى فى عمل . وكان سارتر يريد أن يكون هو نفسه أطلسا على الفور وإلى الأبد . ولم يكن له قانون ولا سبب ولا غاية ولا إيمان . وكان يهرب إلى المهزلة العائلية دائراً راكضاً طائراً من كذبة إلى أخرى ، كان يفر من جسمه غير القابل للتبرير ومن أسراره الرخوة .

ولم تكن طفولته لذلك طفولة حقيقية . كان سارتر يمثل أنه طفل ، فى وسط كبار يمثلون أنهم كبار . وكان يكفى أن يصطدم فى يوم من الأيام باحدى العقبات ليفيق من تمثيله ويستيقظ عــلى الحقيقة . وكان وقتها يسكت ويكف عن الضحك ويحسبه الكل حزيناً . وتسأله أمه : أنت المرح جداً والذى تغنى دائماً مما تشكو ؟ إن عندك كل ما تريد ، وكانت على حق . ولكن سارتر لم يكن حزيناً . إن الطفل المدلل لا يكون حزيناً . إنه كالملك يسأم فقط كما يسأم الكلب . « إننى كلب أتثاءب والدموع تسيل وأنا أحسها تسيل . إننى شجرة تتشبث الريح بأغصانى وتحركها فى غموض . إننى ذبابة أتسلق على الزجاج ثم أتدحرج وأعود إلى التسلق . وأحياناً أحس يد الزمن الذى يمر ، وأحياناً أخرى أكثر من الأولى أحسه لا يمر » . « إن الناس لا يكفون عن الإحاطة بى . تلك هى حبكة حياتى ، قماش رغباتى ، لحم أفكارى ، إننى أحيا الموت ، ففى السنة الخامسة كان الموت يترصدنى ، وكان يذرع الشرفة فى المساء ويلصق فمه بالزجاج . وكنت أراه ولكنى لم أكن أجرؤ على أن أقول شيئاً » .

[وفى هذه الفترة المبكرة استيقظ سارتر على فكرة الموت ، وكانت تلاحقه فى موت أبيه المبكر وفى مرض جدته الدائم . ورغم أن سارتر اعتقد بأنه قد تخلص من عقدة الآباء بوفاة أبيه ، إلا أنه ورث عن موت هذا الأب المبكر فكرة لم تبارحه أبداً ، وسيظل سارتر طوال كتابه « الكلمات » يتحدث عن الموت] ، وسوف نرى فكرة الموت والقلق الناجم عنها تحتلان ركنين أساسيــين من فلسفة الوجود التى قال بها ، بل سوف نرى هذه الفكرة تلعب الدور الأكبر فى روايته الأولى « الغثيان » إذ أن الغثيان أو هذه الحالة العجيبة التى تصيب البطل روكنتين مصدرهــا اكتشافه الموت فى ثمرة الحياة . إن ثمرة حيــاة روكنتين لا تنضج فقط ، ولكنها تنضج لتموت ، أو إن نضجها يتمشى معه نضج دودة عجيبة تنخر فيها ، وكأنما تمام النضج يعنى النضج للموت ، أو بمعنى آخر إننا ننضج لنموت .

هذه الفكرة ربما كان مصدرها هو موت أبيه ولو أن سارتر لا يقول ذلك أبداً فى الكتاب . وثمة حادثة أخرى لا يعترف بها سارتر ولا يذكرها أبداً وتلك كانت زواج أمه ، فموت أبيه تركه لأمه وألقى بثقل الأم عليه ثم انزاحت أمه من فوقه كأنما اختطفها الموت بزواجها الثانى ، ولم يذكر سارتر الحادثة فى الكتاب ولكننا نعرفها ونعرف أثرها عليه ، وندرك أن مثل هذا الزواج يدفعه دفعاً من

الكلمات

جديد إلى التفكير فى أبيه ، وربما كان تناسى سارتر هذا لأبيه ، ربما كان احتجاجاً غير معلن على اختفاء والده السريع من حياته ، والذى عبر عنه سارتر ، بقوله إنه قد تركه بذرة فى بطن أمه وركض .

يقول سارتر : « وحين كنت فى السابعة من عمرى كنت ألتقى بالموت الحقيقى فى كل مكان ، ماذا كان ؟ كان شخصاً وتهديداً . كان الشخص مجنوناً ، أما التهديد فهوذا : كان يمكن لأفواه الظلام أن تنفتح فى كل مكان فى وضح النهار تحت أروع شمس مشرقة فتبتلعنى . كان هناك قفاً فظيعاً للأشياء وكان المرء يكفى أن يراه ليفقد عقله . كان الموت هو رفع الجنون إلى الذروة والاستغراق فيه . وقد عشت فى الإرهاب وكان مرضاً عصبياً حقيقة » .

وكان من الطبيعى أن يفضى تفكيره فى الموت إلى التفكير فى الله . وهنا يأتى أثر موت الأب على الابن رغم عدم اعتراف الابن . إن موت الأب يعنى موت الأب الأكبر . فإذا كان أبوه قد مات فلماذا يعتقد فى فكرة الخلود ؟ بل لماذا يعتقد فى إمكان خلود الأب الأكبر ؟

وتفعل البيئة فعلها الأكبر فى سارتر ، فجده لم يكن مؤمناً وكان شديد السخرية من القديسين ، وجدته كذلك لم تكن مؤمنة ، ولكن أمه كان لها ربها الخاص بها ، والنتيجة أن سارتر سار إلى الإلحاد بأقدام جديه . « لقد أفضيت إلى الكفر لا بسبب نزاع العقائد ، بل بسبب لامبالاة أجدادى . ومع ذلك كنت أومن : كنت أقوم كل يوم بصلاتى وأنا راكع عند سريرى مضموم اليدين ، ولكنى كنت أفكر فى الرب الرحمن الرحيم أقل فأقل . وكانت أمى تصحبنى يوم الخميس إلى معهد الأب ديبلدوس فقد كنت أتابع فيه درس تعليمى الدينى ، وكان جدى يتصرف تصرفات تجعلنى أعتبر رجال الدين حيوانات تثير الفضول . وبالرغم من أنهم كانوا « وكلاء » اعترافى فقد كانوا غرباء عنى أكثر من الرعاة بسبب زيهم الدينى وعزوبيتهم . وكان جدى يحترم الأب ديبلووس ، ولكن نزعته المناهضة للكهنوت كانت صريحة جداً حتى أنى كنت أجتاز الباب الخارجى ولدى شعور أنى أدخل أرضاً عدوة » .

ويواصل سارتر اعترافاته ذات المضمون الإلحادى . وهو هنا لا يذكر لنا البتة سبباً علمياً لهذا الإلحاد ، كما أنه لا يذكر لنا هذا السبب فى كتاباته الفلسفية بعد ذلك . والمعروف أن سارتر لم يتناول مشكلة وجود الله فيما قدم من مباحث فلسفية ، سواء فى كتابه « الوجود والعدم » أو فى كتابه الأحدث « نقد العقل الجدلى » بما اشتمل من مقدمة بعنوان « مشاكل المنهج » . وسارتر يبدأ بحوثه بعد الرفض : إنه يرفض الإله ولكنه لا يؤسس رفضه ، وإنما هو يؤسس فلسفته بعد الرفض . وهذا الرفض يعترف لنا به فى كتابه « الكلمات » : إنه رفض مؤسس على حوادث فردية صغيرة نمت إلى إبان الطفولة ، وكأن سارتر هنا هو أوريست الذى

عالجه بعد ذلك فى روايته « الذباب » . إن أوريست ينشأ بعيداً عن أثر الوالدين . وهو إذ يلتقى بزيوس ويحاوره زيوس فى عدم ارتكابه لجريمة قتل أمه يكتشف أوريست أن برهان حريته معلق بقتله للأم ولزيوس نفسه . إن قتله للأم هو قتل لزيوس نفسه ، وهو يرفض زيوس . ومن ثم تصبح المبادئ والقيم مصدرها نفسه ويصبح هو نفسه حراً تماماً أمام نفسه . وسارتر يقول : « وفى مطلع العام الدراسى الجديد طلبت ألا أذهب إلى معهد ديبيلدوس . ومع ذلك ظللت خلال بضعة أعوام أخرى أعقد صلات عامة مع الرب القدير . أما فى السر فقد كففت عن معاشرته ، ومرة واحدة داخلنى الشعور بأنه موجود . كنت قد لعبت بأعواد ثقاب وأحرقت سجادة صغيرة . وكنت مستغرقاً فى إخفاء جريمتى حين تخيلت أن الرب يرانى . لقد رآنى فجأة وأحسست بنظره فى داخل رأسى وعلى يدى . وجعلت أطوف فى الحمام مرئياً بصورة فظيعة . وأنقذنى الحنق ، لقد غضبت على فعل أحمق إلى هذا الحد ، فأخذت أجدف وأتمتم كجدى ، وألعن الدين ثم ألعنه ثم ألعنه . فلم ينظر الرب إلى بعد ذلك أبداً .

وسارتر يصف روايته لقصة عدم إيمانه بأنها قصة نزعة أجهضت . « لقد كنت بحاجة إلى الله فأعطونى إياه وتلقيته من غير أن أفهم أنى كنت أبحث عنه . ولأنه لم يأخذ جذراً له فى قلبى ، فقد نبت فى بغموض فترة من الزمن ثم مات . وحين يحدثونى عنه اليوم أقول بلهجة تسلية « منذ خمسين عاماً ، لولا سوء التفاهم ذاك ، ولولا تلك الغلطة ، ولولا الحادث الذى فصل بيننا لكان بالإمكان أن يكون بيننا شىء ما » .

[ومن الطبيعى وقد التقى سارتر بالموت ثم قضى على رهبته بأن قضى على نفسه على التفكير فى الآخرة بقضائه على فكرة الله – أقول من الطبيعى أن يتجه بكليته إلى الحاضر ، وأن يكتب – كما يقول هو – فى اللامبالاة .

وتغير كل شىء حين أخذت حياته تسرع « فلم يكن كافياً بعد أن يحسن المرء العمل ، بل كان ينبغى أن يحسنه فى كل وقت ، ولم يكن لى بعد إلا قانون واحد : أن أتسلق نحو اكتمالى ، نحو موتى ... وتبينت أسطورة طبقتى وجيلى . كنت أفيد من المكسوب وكنت أمول التجربة ، وكان حاضرى يغتنى من كل ماض . . . (مع ذلك) لماذا يفرض فى الماضى أن يغنينى ؟ إنه لا يصنعنى ، بل أنا على العكس الذى أنبعث من رمادى وأخرج من العدم ذاكرتى . كنت أولد من جديد ولادة أفضل ، وكنت أستعمل استعمالا أفضل ذخائر روحى ، لسبب بسيط هو أن الموت ، الذى كان أقرب إلى فى كل مرة ، كان ينيرنى فى حيوية أكبر بنوره المظلم . وكان غالباً ما يقال لى إن الماضى يدفعنا ، ولكنى كنت مؤمناً أن المستقبل كان يجذبنى . وكنت سأحتقر أن أحس فى قوى رقيقة تعمل ، وأن أعى التفتح البطئ لاستعداداتى ، وأخذت تقدم البورجوازيين المتصل ودسسته فى روحى وجعلت منه محركاً ذا انفجارات ، طالبته أن يخفض الماضى أمام الحاضر والحاضر أمام المستقبل . وحولت النزعة التطورية الهادئة إلى نزعة مفجعة ثائرة متقطعة . ولقد نبهونى منذ أعوام إلى أن شخصيات مسرحياتى ورواياتى يتخذون قراراتهم بصورة مفاجئة وفى الأزمة ، وأنه كانت تكفى لحظة مثلا لكى ينجز أوريست تحوله . عجباً ، ذلك أنى أصنعهم جميعاً على صورتى ، لا كما أنا بلا شك ، بل كما أحببت أن أكون » .

وكتاب سارتر كما نرى تحليل عميق للمرحلة الأولى من تكونه . وسارتر لا يورد كل شىء من طفولته ، ولكنه يذكر لنا فقط هذا الجانب الذى

يحيل إلى جوانب أكبر فى حياته المستقبلة ، وعظمة الكتاب هو فى التحليل الرائع الذى يقدمه لنا سارتر والذى طوره قبل ذلك فى كتابين من هذا النوع هما « القديس جان » و « بودلير » ، ومارس فى الكتب الثلاثة نظريته فى التحليل الوجودى التى تختلف اختلافاً كبيراً عن نظرية مدرسة التحليل النفسى الفرويدى .

[غير أن ترجمة الدكتور سهيل إدريس أفسدت النص كثيراً فهناك أخطاء كثيرة جداً فى الترجمة أورد منها مثلا هذه الأخطاء فى الصفحات الأولى :

يترجم épicier سماناً وصحتها بقــالا ، و hallucinations هلسنات وصحتها هلوسات ، ويترجم écuyère فارسة وصحتها بهلوانه ، و voulut préparer Navale أن يهيئ شهادة البحرية وصحتها يرغب فى التدريب البحرى ، ويترجم pour voir la mer لكى ينعم برؤية البحر . . ولا أدرى من أين جاء بمعنى ينعم هذا ! ! إن الترجمة لا تخرج عن « التطلع إلى البحر » ، ويترجم la longue Ariane أريان فقط وترك صفة « الطويلة » ، وترجم passive بالصمت والهدوء وصوابها هنا السلبية ، كذلك يترجم les invitations se firent plus rares فيقول تدنت الدعوات . . وصحتها تضاءلت الدعوات .

ثم ينسى أن يترجم Avoué Catholique فى ص ٤ فيغمض معنى الجملة التى خلت من هذه اللفظة « قسيس كاثوليكى » .

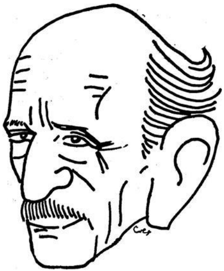
وتتلخص أخطاء الترجمة فى إساءة الترجمة ثم فى تناسى ترجمة ما يصعب على المترجم فهم معناه ، ثم أخيراً فى إسقاط جمل بأكلها . وثمة خاصة أخرى أعتقد أنها إساءة غير متعمدة وإنما مرجعها تركيب الجملة العربية عند الدكتور سهيل إدريس .

مثلا هذه الفقرة « لندع هذا . ولو كانت مامى موجودة لقالت « انسلوا أيها الميتون ولا تلحوا » . إن ما أحبه فى جفونى هو أنه حمانى ، منذ اليوم الأول ، ضد إغراءات « النخبة » : فاننى لم أظننى قط المالك السعيد لموهبة : كانت قضيتى الوحيدة أن أنقذ نفسى ، لا شىء فى اليدين ، لا شىء فى الجيبين — بالعمل والأمل . من أجل ذلك ، لم يكن اختيارى المحض يرفعنى فوق أحد ، وبلا تجهيز ، وبلا أدوات ، انصرفت للعمل كلياً ، لأنقذ نفسى كلياً ، إذا نحيت « الخلاص » المستحيل إلى دكان اللواحق ، فماذا يبقى ؟ إنسان مصنوع من جميع الناس ، وهو سواهم جميعاً ، وسواه أى واحد منهم » .

إننا هنا بإزاء ترجمة شبه حرفية دون فهم لمعنى الجملة ومرماها ، ثم نحن بإزاء تعبيرات عامية دون مستوى الأصل الفرنسى (كما نــرى فى السطر الأخــير) مع أن الأصل الفرنسى وبالذات فى هذه الفقرة من أقوى النصوص الأدبية وأرفعها .

وبعد فاننا نتطلع بشوق إلى ترجمة عربية أخرى لهذا النص القيم يتجاوز فيه المترجم هذه الأخطاء ويرقى إلى مستوى فلسفة ولغة مفكر من أكبر مفكرى القرن العشرين .

عبد المنعم الحفنى



ميخائيل نعيمه

مع

جبران خليل جبران



تأليف
ميخائيل نعيمه

الناشر : دار الهلال • العدد ٩٠ سبتمبر ١٩٥٨

أقدم الأستاذ ميخائيل نعيمه على كتابة سيرة جبران لأنه وجد رفيقه يكاد يكون أسطورة من الأساطير فى الشرق وفى بلاده فهو ليس جبران الذى رافقه خمسة عشر عاماً وخبر أحلامه وآلامه وبلى قوته وضعفه وراقب جهاده العنيف مع نفسه والعالم . وهناك دافع آخر وهو أن كثيراً من المتأدبين قد طالبوا الأستاذ ميخائيل نعيمه بكتابة سيرة رفيقه .

ولقد استقى المؤلف معلوماته عن حياة جبران من بعض اعترافات جبران نفسه ، وأما عن تجربة « جبران » مع « ميشلين » فقد عرف ذلك من « مارى هاسكل » بعد موت جبران . . يقول المؤلف ص ٢٦١ :

« . . . بل حدثتنى حينئذ – ومراراً بعدئذ – عن جبران كما لو كان ما يزال حياً ، وأنا مدين لها بالكثير مما صورته فى هذا الكتاب من علائق جبران معها ومع ميشلين » . واعتمد المؤلف أيضاً فى كتابته لهذه الترجمة الغيرذاتية على الرسائل والأقارب وعلى أقوال من بعض أصدقاء جبران – ولم يلق عنتاً أو مشقة فى جمع مادة الترجمة لأنه كان معاصراً لجبران وكان من أخلص أصدقائه . واعتمد على مؤلفات جبران وكانت جميعها تحت يده فاستطاع أن يدرسها بعناية ويستخلص منها صورة دقيقة لفهم نفسية جبران . وبذلك تحقق لهذه الترجمة قسط كبير من الصدق التاريخى .

وقد قسم المؤلف كتابه ثلاثة أقسام : الأول الشفق ، الثانى الغسق ، الثالث الفجر .

والقسم الأول يمثل حياة جبران فى الطفولة ثم يصور المصائب التى دهم بها جبران قبل أن يشتد عوده ويقوى أوده ، وبدأت هذه المصائب بموت أخته « سلطانة » وموت أمه ثم موت أخيه « بطرس » وهكذا أفلت الشمس التى كانت ترعاه بأشعتها وذهبت أمه بحنانها وتركت له قسوة الحياة واضطهاد الأيام . ثم يدخل بنا المؤلف فى القسم الثانى ، وفى هذا القسم تشتد ظلمة حياة جبران فقد واجه حياة الفاقة ، ونراه فى هذه الفترة من حياته ثائراً متمرداً على الناس وشرائعهم ، لأنه لم يكن مستقراً مادياً ، وكان قلبه موزعاً بين منازعه الشهوانية التى تجذبه إلى قاع الأرض وبين أحلامه التى تريد أن تسبق إرادته . ثم يختم المؤلف حياة رفيقه بالقسم الثالث وهو انبثاق النور فى حياته وانقشاع ظلمة الثورة والتمرد من قلبه . واتسمت حياته فى هذه الفترة بطابع الهدوء والتوبة ، فقد استقر مادياً وهدأت ثورته واستراح قلبه من عناء الحب فاستقر على حب امرأة واحدة حباً روحياً وهى « مارى هاسكل » ثم التوبة أخيراً بعد آخر تجربة له مع النساء .

وكان المؤلف فى بنائه لترجمة جبران – أقرب إلى المعمارى وكان كالمؤرخ فى قوة النقد وكالعالم فى القدرة على التصنيف والتقسيم .

وقد وفق المؤلف فى كتابة سيرة جبران توفيقاً عظيما ، وهو بذلك قد حقق غاية كالتى يحققها القصصى أو زاد عليه لأنه أمتعنا بصورة من الواقع الملموس ، وأعاد الحياة كما عاشها جبران لأنه أعاد فيها عمل الطبيعة دون أن يضيف إليه ولم يمنح الشخصية وجوداً جديداً إلا بمقدار محدود .

[وسيرة جبران فن لا بمقدار صلتها بالخيال وإنما لأنها قامت على بناء فنى ولذلك فهى أدب تفسيرى ،

عدد الصفحات : ٦٦٥ صفحة – ١٤×٢٠ سم – الثمن ١٠ قروش

فقد استطاع المؤلف أن يرسم حياة جبران رسما دقيقاً مستعملا فى ذلك طريقة التفسير والشرح] .

وبدأ المؤلف ترجمة جبران بموته رختمها بموته وكنا العنوان فى البداية والنهاية واحداً وهــو « الاحتضار » . وبدأ بموته ليشعرنا بقمة المأساة وختم بموته لأنه الخاتمة الطبيعية لحياة كل إنسان ، وفى هذا الفصل نرى المؤلف مصوراً ماهراً فقد استطاع أن يرسم لنا صورة دقيقة لرفيقه المحتضر . فقد صور ساعة الاحتضار تصويراً يجعلنا نقف وجهاً لوجه أمام رهبة الموت بقلوب خاشعة ونفوس مستسلمة لإرادة الموت التى سوف نرضخ لهــا جميعاً .

ونحس بقمة المأساة عندما يملك التفجع قلب « نعيمه » لمفارقته رفيقه . . يقول فى ص ٢٥٦ :

[وعلاقتى برفيقى ؟ أتنقطع بانقطاع أنحابه ـ وأفكارنا التى تقاربت فتلاصقت فى بعض مناحيها ، وروحانا اللذان تعارفا فتآخيا أتفصل بينهما وهدة الموت إلى الأبد ؟ . . . أين هى القدرة التى فى وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسلة مفككة مقطعة . أليس علاقتى برفيقى حلقة فى تلك السلسلة فهى لا تنفك ما دام الزمان زماناً] .

وتمشى المؤلف مع حركة النمو والتطور فى انبناء — أى رسم صورة متدرجة مكتملة لحياة رفيقه — وقد قدر للمؤلف أن يعرف مفتاح شخصية رفيقه بعد أن عاشره خمسة عشر عاماً وبعد أن أحاط بعاداته وأساليبه وميوله ، وأغنت الرؤية والخبرة والفطنة فى إدراك تصرفاته وتبين أغراضه عن الكثير المكرر منها لأن بعضها قد دل على بعض . وتتضح لنا نقطة الارتكاز من قول المؤلف ص ١٠ مدافعاً عن الصراحة التى اتسم بها كتابه « . . . لكنها صراحة لست لأتخلى عنها ، فلولاها لما كان هذا الكتاب أهلا للنشر ، ولولاها لانطمس أجمل ما فى حياة جبران وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه بخياله وبثه بسخاء فى رسومه وسطوره . . . » ، « والأدب مهما جمل لا معنى له إلا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذى هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء » ويرجع نجاح المؤلف فى ترجمة حياة رفيقه إلى أنه صوره كانسان وليس كأسطورة ، وكانت نقطة الارتكاز عنده هو أنه بين تناقض جبران وقارن بين إنتاجه الفنى وبين حياته الخاصة التى أطلع عليها المؤلف أكثر من أى شخص آخر لصلته الوثيقة به . ولم يحاول المؤلف أن يبرر أخطاء رفيقه وإنما فسر ألغازها وبين أسبابها .

وشغلت فكرة اظهار تناقض جبران جزءاً كبيراً من الكتاب وهى نقطة الارتكاز التى حاول المؤلف أن يوضحها تمام التوضيح ، ولكنه لم يستطع أن يتحرر كل التحرر مع أنه قد قال فى المقدمة « إنه لن يتقيد بشىء » ولعل هذا يرجع إلى المجتمع الشرقى الذى ما زال يتحرج من ذكر الأشياء الخارجة على آداب المجتمع أو يرجع إلى الصداقة الخاصة » .

ولقد كيف المؤلف إنتاج جبران الفنى ، والأحداث التى مرت به حول نقطة التناقض — ولمح نعيمه الجوانب الحسية والخفية ، والدوافع النفسية التى أملت على جبران أعماله وأقواله ، وساعده ذلك على إبراز التناقض فى حياة جبران بين نفسه الظاهرة ونفسه الباطنة .

واتخذ المؤلف طريقة القص فى كتابته لسيرة جبران وكان لهذا أثره فى النص . فقد جعل من سيرة جبران قصة متكاملة البناء بطلها جبران ، ثم هناك شخصيات ثانوية تساعد على تحريك الحدث ودفعه للأمام وهذه الطريقة الروائية لا تعطينا الصورة دفعة واحدة وإنما نتلقى الصورة تدريجياً وببطء ، فمثلا عندما تكلم عن تعليم جبران لم يتكلم عنه دفعة واحدة وإنما تدرج به مع أحداث الحياة فأتت الصورة متفرقة فى صفحات متباعدة من الكتاب . يقول المؤلف ص ٣٢ « . . . فقد دخل مدرسة القرية فى بشرى . . . » . « ثم رحل إلى بوسطن وتعلم

الإنجليزية فى سنتين وظهرت موهبة الرسم عنده منذ أن كان بمدرسة القرية . . . » .

ويقول ص ٥٦ : « ثم دخل بعد ذلك مدرسة الحكمة ومكث بها أربع سنوات » ويقول ص ٧٢ « ثم درس الفن على نفسه وعلى بعض المصورين فى بوسطن . . . » ويقول ص ٩٠ « . . . ثم ذهب عام ١٩٠٨ إلى باريس ليدرس الفن على نفقة « مارى هاسكل » ورجع عام ١٩١١ . . . » .

الرواية والسيرة

[وقد استوفى المؤلف فى سيرة جبران عناصر السيرة الفنية وفيه اكتمل للسيرة وجودها فى الأدب العربى الحديث من حيث الغاية والتطبيق ولم يخجل من أن ينظر بعين الناقد الساخر إلى كثير من متناقضات جبران] .

وبعث المؤلف الحياة فى الشخصيات الثانوية وسار بهم فى مراحل الحياة مع سير بطل السيرة نفسه ولم يستخف بهم ولم يجعل أدوارهم طاغية تتجاوز ما قدر لهم فى واقع الحياة . وقد كان المؤلف موضوعياً يلمح بسرعة ويفهم الأحكام ويلم بالحقائق ويحكم عليها ويمزجها مزجاً متعادلا منسجماً ويصبغها بأسلوبه ، واستطاع بفنيته الروائيـــة أن يظهر الأشخاص وكأنهم أحيـــاء يتحركون على مسرح الحياة ، ويغدون ويروحون بما يختلج فى نفوسهم من نوازع الإنسان الخيرة والشريرة التى تتم بها صورة الكائن الإنسانى الحى . وربط المؤلف الأحداث بالحياة فكان لها زمان ومكان ومحرك ، وهذا جعل السيرة أكثر ميلا إلى أن تكون فناً أدبياً . وربطه الأحداث ببعضها مثـــل ربطه بين ميلاد جبران وموته أثناء تكلمه عن « ميلاد جبران » يقول فى ص ٢٧ « . . . ولو كان « لكامله جبران »



جبران

أن تبصر الصلة التى بين فراشها فى « بشرى » وبين السرير الأبيض الصغير فى مستشفى القديس فنسنت فى نيويورك . . » وفى ص ٣٠ نجده يربط بين طفولة جبران وطفولة « مارى هاسكل » .

[وجعل المؤلف النمو عالقاً بالحركة الداخلية للشخصية الرئيسية ، وأعطى الشخصيات الأخرى فى كتابه خطاً من الوجود يعين على تدرج النمو فى الشخصية الرئيسية . ولم يلتفت إلى الأحداث الخارجية قدر التفاته إلى النمو الداخلى النفسى ، ومنح لمقدرته الأدبية مجالها فأجاد من الزاوية النفسية أيضاً .

وأهم ما يلاحظ فى سيرة جبران هو النمو والتطور والتغير فى الشخصية مع مراحل التقدم فى السن ، ولذلك تتبع نعيمه التدرج التاريخى ولاحظ بدقة تأثير الأحداث فى الخارج والداخل على نفسية جبران .

واتجه المؤلف بكتابته نحو التحليل والتفسير ، ولم يسخر الأحداث والأحكام وملابسات الحياة لعاطفته ، فإن ازدياد العاطفة ينحرف بالسيرة عن وضعها الطبيعى ،وبنى ما كتبه على أساس من الصدق التاريخى ولم يجعل الخيال يتحكم فى السيرة لأن الحرية فى الخيال هى التى تضع الحد الفاصل بين القصة والسيرة] .

والطريقة الروائية فى سيرة جبران لم تخل بحق الصدق التاريخى فلقد كان نعيمه بارعاً فى المزج بين

التاريخ والأدب . يقول نعيمه على لسان خليل جبران « . . . أتعرفين ماذا سنسميه ؟ جبران — جد العائلة — ارض يا امرأة ارض . كم اليوم من الشهر ؟ ستة ؟ أرض — ولد جبران خليل جبران ليلة السادس من كانون الأول سنة ١٨٨٣ فى قصبة بشرى من أعمال لبنان » .

ولذلك فسيرة جبران تقف موقفاً وسطاً بين الاعتماد على الحقائق والخيال — فزج المؤلف بين الميل القصصى والسرد التاريخى ولون الخصائص بفن القصص ، فالناس يحبون الحقائق مغلفة بالطلاوة كما تغلف الأدوية بالحلوى . واستطاع المؤلف أن يلمس قلب جبران وأن يهتدى إلى دخيلته ويصوره تصويراً صادقاً أميناً ، ونلحظ فى كتابته صحة الملاحظة النفسية المشوبة بروح الفكاهة وصدق العطف وقوة التأليف والتركيب وبراعة الاختيار ، ولم تنحدر كتابته إلى التكلف والحذلقة والسماجة ، ولم تهو إلى الافراط فى المدح ، وهى بذلك تخدم الفكر والأخلاق بطريق مباشر لأنها توسع العطف الإنسانى وتنسينا الأنانية البغيضة . وامتازت كتابة نعيمه بصدق الأداء وقوة التصوير والجمع بين المزايا المختلفة . ولمسنا فى كتابته متعة القصص وتشويق الرواية وبراعة النسج وإجادة السرد ، وتصوير الواقع وتفسير الحقيقى . واستطاع المؤلف أن ينسق الحوادث تنسيقاً خاصاً فصبها فى قالب روائى جميل ، ولم يدع الحقائق تتحدث عن نفسها وإنما تحتال فى دقة وحسن تأن على توجيه الحديث وتلوين الصورة ، واستطاع المؤلف أن يسد فجوات السيرة متبعاً فى ذلك مذهب الروائى فى حفظ التوازن والاتساق وتوزيع الظل والضوء .

وعنى المؤلف أكثر ما عنى بذات جبران ودراسة شخصيته منفصلة عن حدود الزمان والمكان ، وتأمل قواها المكنونة وما طرأ عليها من تباين العواطف والأزمات النفسية . فعرفنا كيف عجز جبران عن أن يلائم بين أقواله وأفعاله . ولقد سلم فى ترجمة جبران ، المنهج التاريخى إثباتاً لأمهات الحقائق وخطوط الصورة الكبرى والملامح الأساسية للشخصية ، وقد أضفى العرض الأدبى أضواء لافتة وألواناً زاهية على سيرة جبران .

ربط القارئ بصاحب السيرة

واستطاع المؤلف أن يجذبنا إلى جبران جذباً ويربطنا به ربطاً فقد عرض الأحداث محاولا أن يشعرنا بانسانية جبران . وحاول أن يشعرنا بأن فى هذا اليوم بالذات ١٠ أبريل ١٩٣١ — قد مات جبران — الذى وجدنا شيئاً إنسانياً يربطنا به — ومن هنا نرى أن المؤلف قد واءم بين الحادث وبين اليوم الذى يشعر القارئ بتاريخه .

وقد اهتم المؤلف بالأحداث الصغيرة وصورها أدق تصوير ليجعل أحداث جبران تؤثر فينا حتى نعيش معه يوماً بيوم وفكرة بفكرة وحادثاً بحادث ، حتى لا يكون موته موت الرجل العادى — بل هو موت يؤثر فينا بتأثيرات مختلفة — وموت جبران هو قمة المأساة فى هذه السيرة الأدبية الممتازة ، فحادث موته مؤثر فى ذاته — وجبران يمثل نوعاً من التجارب بين القراء وبين كاتب السيرة . وقد بدأ المؤلف الفصل الأول بموت جبران وأشعرنا بأن صديقه بموت ورسم المنظر رسماً دقيقاً فجعلنا مربوطين ربطاً قوياً بجبران .

واختيار المؤلف البدء بالنهاية — لأن النهاية لها قوة الربط بينها وبين العظيم وقوة الربط بين الكاتب والقارئ . وقد وفق المؤلف توفيقاً بالغاً فى بدايته لسيرة جبران بموته ، ثم أخذ القارئ إلى حياة جبران مرة أخرى من أول الطريق . كل هذا لم يكن عبثاً ، فنعيمه قد كتب سيرة رفيقه بعد أعوام من موته —

وبدأ بموته لأن هذه آخر مرة رآه فيها وهى التى كانت منبسطة فى ذاكرته ، ولأنه كان منفعلا انفعالا أقوى بالنسبة لهذا الحدث الأخير .

واتسمت ترجمة جبران بقوة التحليل النقدى والعمق فى التفسير وإدراك المعانى الكلية واستنباط العبرة من كل الأحداث التى عنى بدراستها . وحقاً إن سيرة جبران أشعرتنا بشىء قريب من الحزن ، غير أن سيرته فى أدوار حياته المختلفة غرست الثقة فى النفس الإنسانية وأوحت بأن دور كل منا يجب ألا يمر يائساً خاملا على الرغم من النهاية المحتومة .

وكثيراً ما نرى الكاتب يذكرنا بقمة المأساة وهى موت صديقه عندما كان يتكلم عن أحلام جبران التى أبت الأقدار أن تحققها له ، فنشاركه حزنه على صديقه ، ويقودنا الشوق إلى متابعة القراءة لكى نعرف الحلقات الباقية من حياة رفيقه ، فقد كان جبران يحلم بالرحيل من أمريكا إلى لبنان ليعتزل العالم فى صومعة فى دير « مار سركيس » .

[وعنى المؤلف عناية فائقة - بتوضيح سخافات جبران - وسخر من أحلامه وما كان يراود نفسه من العظمة والخلود وأخذ ينقد مؤلفاته نقداً لاذعاً ، وسخرية نعيمه لم تكن ذماً أو تهكماً لاذعاً وإنما كانت سخرية متزنة مستعذبة] .

وهكذا نرى المؤلف لم يسدر بصره ضخامة شهرة جبران ولم يخشع أمام هيبته كما يخشع الناس ، ولم يسم به إلى مراتب الآلهة والأرباب ولم ينزهه من الأهواء والأخطاء ، بل هو يسخر منه فى بعض المواقف ويكشف عن الكثير من نواحى ضعفه وصارخ متناقضاته .

والمؤلف بذلك لا يبعد جبران عنا كثيراً ولا يفرق بيننا وبينه ولا يحاول الخروج به من آفاق الإنسانية وهو يرينا كيف كانت تعصف به الشهوات وتميل به عن القصد .

وقد كان للمعاصرة فوائد عظيمة القيمة فى هذه السيرة فقد هيأت لنعيمه أن يطلع على حياة جبران الخاصة ، وهذا الاتصال ساعده على تفسير رسوم صديقه . . . ففى رسم الحرية فى قصيدة «المواكب» أزاح المؤلف الستار عن هذا الرسم فبين لنا أنه يصور نفس جبران تمام التصوير وكأن جبران رسم نفسه بهذا الرسم وكأنه وصف نفسه عندما قال :

والحر فى الأرض يبنى من منازعه
سجناً له وهو لا يدرى فيؤتسر

وفسر المؤلف رسومات جبران وحل ألغازها وحكم على رسوماته بالجودة وأنصفه فى الحكم ، ولا نرى أثراً لروح التحامل فى هذا النقد . وشرح المؤلف قصيدة « المواكب » وفسر غامضها ، وتغلغل فى نفس صديقه ومضى يحلل شخصيته تحليلا دقيقاً ، وكشف عن تناقضه وبين الفرق الشاسع بين ما يقول وما يفعل فجبران يقول فى الحب ص ١٦٥ :

والحب إن قادت الأجسام موكبه
إلى فراش من الأغراض ينتحر
والحب فى الروح لا فى الجسم نعرفه
كالخمر للوحى لا للسكر ينعصر

ويعلق المؤلف على هذين البيتين بقوله : « . . . فهو يبكت نفسه فيما يقول لأنه كان جسدياً . . . » .

ويبين لنا المؤلف أن لجبران شخصيتين : شخصية جبران فى الصومعة الذى كان يعتبر أمجاد الناس حقارة ، وغناهم فقراً وفضائلهم عبودية فكان يمتشق سيف النقمة فوق رءوسهم ، وشخصية جبران الذى كان يشتهى أمجاد الناس وغناهم ، وفضائلهم وملذاتهم فكان يأتيهم حاملا قصعة المستعطى ، فنشبت بين شخصيتيه المزدوجتين حرب عوان تتدفق عليك مرارتها من خلال سطور جبران الشاعر ، وتطالعك أوجاعها من خطوط جبران الفنان .

واطلاع نعيمه على حياة جبران الخاصة أعانه كثيراً على فهم مؤلفاته وتفسيرها فكشف عن حالته النفسية فى أطوار حياته المختلفة ، فكانت مؤلفاته معبرة عن نفسه فى كل مرحلة من مراحل حياته المختلفة .

واستطاع المؤلف – لمعاصرته لجبران ولصلته الوثيقة به – أن يحل الرموز التي وردت في كتابه « النبي » ، ولو لم يكن معاصراً له لما استطاع أن يفعل شيئاً من ذلك يقول ص ٢٠٩ « . . . فا أورفليس التي كان فيها غريباً يترقب رجوع سفينته إلا نيويورك أو أمريكا ، وما « الميترا » التي اكتشفته وآمنت به قبل كل الناس إلا « مارى هاسكل » ، ولا الجزيرة التي كان يشتاق إليها غير لبنان ، ولا وعده لأهل أورفليس بأنه سيعود إليهم سوى إيمانه بعقيدة التناسخ . . . » .

وكشف المؤلف النقاب عن سبب قلق جبران وسبب ثورته وذلك لأن خياله كان أنشط من إرادته .

اعترافات جبران

وأورد المؤلف كثيراً من اعترافات جبران حتى لا يكون جائراً عليه في الحكم وحتى تقوم كتابته على الصدق التاريخي الذي هو أساس الترجمة ، وتكلم عن مؤلفات جبران حسب التدرج التاريخي لها مع حياة مؤلفها . واستفاد المؤلف من المعاصرة كثيراً في وصف الشخصيات وتحليلها فكان صادقاً في وصفه لأنه رآهم . فهو يرسم صورة حقيقية ، يرسمها كما رآها لا بعين خياله ؛ ومن ذلك تصويره « لمارى هاسكل » وفي تصويره للمكان مثل تصويره لحي الصينيين في « بوسطن » بأمريكا الشمالية ووصفه كما رآه سنة ١٩٢٥ وصور قذارته وحقارته أدق تصوير . وقد زود المؤلف ترجمته لجبران بمجموعة من الصور الفوتوغرافية ، وهذه الصور تعد وثيقة من الوثائق الهامة في ترجمة جبران ، فهي دليل قاطع على صدق ما يرويه المؤلف وهي أيضاً برهان على صدق الوصف ، فالصورة التي أوردها نعيمه لجبران عندما زار مزرعة « كاهونزى » توحي ملامحها بألم دفين يعانيه صاحبها – فهو فيها مستغرق في تأملاته قد نأى بنفسه عن كل ما يحيط به – ونرى المرارة تقطر من نظراته والكآبة علت وجهه . واعتمد المؤلف على رسوم جبران في فهم نفسيته مثلما فعل في رسم الحرية الذي رأى فيه صورة مطابقة لحياة جبران .

وأهم سمة قد اتسمت بها هذه الترجمة هي سمة الصراحة ؛ يقول نعيمه في مقدمة كتابه ص ٢٢ « . . . ثم إن في حياة كل إنسان « أسرار » يكتمها عن الناس ، وأنا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتني منها الكثير ، فهل يليق لي أن أبوح ولو ببعض البعض الذي أعرفه ؟ وإن أنا كتمته فما معنى الذي أكتبه أ أخون نفسي والقارئ وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجل الحياة الكبرى ؟ » .

[ومن أجل هذه الشجاعة والصراحة نستطيع أن نقول إن « نعيمه » قد حقق ما يعجز عنه غيره حين واجه الناس بما ينفرون منه دون رياء أو مواربة ، فأدى للفن شيئاً أسمى بكثير من الدرس التعليمي أو الأنموذج الجامد ، وخلق إنساناً تام الخلق ولم يخلق مثالا أو تمثالا] .

ولم يكتف المؤلف بوصف المظاهر الخارجية وتعداد المآثر المتعارفة ، وإنما ظهرت مقدرتــه وبراعته في كشف مجاهل ضمير صديقه ومغالق نفسه ، فأخرج لنا من شوارد الأخبار ومتخلف الآثار شخصية نابضة بالحياة . وأوضح الصلة بين الفن والحياة لأن الاتصال بين الفن والحياة أوثق وأضمن مما في الرواية العصرية لأنه ملتقى الحق الفني والحق التــاريخي . وحاول المؤلف أن يظهر صــديقه إنساناً لا أكثر ولا أقل ، فالعادة التافهة والكلمة العارضة أعانت ميخائيل على تفسير جانب خفي من جوانب أخلاق جبران وجلت ناحية غامضة من نواحي نفسه .

وهذه التقلبات والأعاصير التي اجتاحت حياة جبران جعلت منها موضوعاً صالحاً للسيرة مثيراً لشهوة الاستطلاع .

ونلمح في كتابة نعيمه الدقة المتناهية ، والواقعية الفوتوغرافية ، والصدق والصراحة في الكتابة ، وعنصر الحيوية في ذلك الصدق .

وقد قامت سيرة جبران على خطة معينة ، ولذلك فهى ليست من الأدب المستمد من الخيال ، بل هى أدب تفسيرى ، وهذا النوع من الأدب كالأدب الذى يخلق خلقاً من حيث أن صاحبه معنى بغاية محدودة تهديه فى اختياره وترتيبه للحقائق ، وهو كالروائى أو القاص أيضاً يحاول أن يكشف عن الصراع بين بطل سيرته والطبيعة . وصراعه مع الناس الآخرين ومع نفسه . فيحاول أن ينقل إلى القراء حقيقة ذات قبول عام ولكنه لا يستطيع أن يحكم خياله فى أجزائها ، وبدل أن يقف موقف الخلاق تراه يقف موقف المستكشف المفسر لأشياء وأشخاص وجدوا فى الحقيقة .

وقد وضع المؤلف شيئاً من الحرارة فى الحوار الذى أجراه فى سيرة جبران ، فذلك مع البناء العام قد حقق لسيرة جبران الخطة المؤثرة وأثار العطف على بطل السيرة .

[وتفضيلنا لسيرة جبران سببه هو أن العناصر من صراع بين بطل السيرة والناس وصراعه مع نفسه والحرارة التى بثها ميخائيل نعيمه فى الحوار وذلك البناء الذى تميز بقسط كبير من الإحكام . كل هذا جعل مما كتبه نعيمة سيرة جميلة ممتعة فى كيانها العام ، وقد حقق المؤلف فى تلك السيرة ما يسمى بالخطة المؤثرة على قدر ما سمحت به حياة جبران ونهايته] .

ومن كان يظن أن الكاتب قد أثار كراهية الناس لما انطوت عليه حياة جبران من تناقض مع فلسفته ونظرياته فانه مخطئ عاجز عن تذوق الحقيقة على مرارتها وليس لديه القلب الذى يرى فى الخطيئات الإنسانية جانبها الطبيعى المقبول .

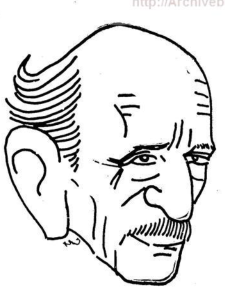
[ومما نأخذه على المؤلف فى هذه السيرة أنه قد ورط قلمه فى بعض المقدمات إلى حد الإملال] .

مثل الفصل الذى يحمل عنوان « سكرة ثم صحوة ثم سكرة » فقد أطال المؤلف فى هذه المقدمة طولا ليس مرغوباً فيه ، وهى شطحات خيال أورط الكاتب فيها نفسه . وهذه مكانها يكون فى القصة ولا يكون فى السيرة التى تعتمد على أساس من الواقع .

وفى بعض الأحايين كان المؤلف يخرج إلى تفصيلات لا داعى لذكرها ، مثل وصفه لصومعة جبران عند ما زارها لأول مرة برفقة نسيب عريضه وعبد المسيح حداد . وكأن نعيمه يريد أن يظهرنا على دقة ملاحظته وقوة ذاكرته فى الإحاطة بكل الدقائق ، ولكن دقة ملاحظته أتت من أنه دخل هذه الصومعة أكثر من خمسة عشر عاماً فكيف لا يحيط بكل دقائقها ؟ !

وفى الفصل الذى صور فيه مدى سلطان الفلس على الناس أسرف المؤلف فى الصورة الأدبية التى عرضها عن الفلس وبالغ فى ذلك مبالغة شديدة وأكثر من الحوار ، وهذا كاد أن يبعد الترجمة عن الحقيقة والواقع الذى يجب أن تهدف إليه والذى يجب ألا يضيع لاعتبار يتعلق بزخرف العبارة أكثر مما يتصل بلب الموضوع .

وقصر نعيمه أيضاً فى عدم تصويره لشعور جبران إزاء حادث موت والده . فقد تلقى جبران — عندما كان فى باريس — رسالة تنعى إليه وفاة أبيه فى بشرى ، ولم يعرفنا نعيمه



صدى هذا الحادث فى نفس جبران وإنما ترك الخبر بدون أى توضيح أو تحليل لنفسية جبران إزاء هذا الحادث المؤلم ، وكيف لا يتأثر جبران بموت والده مع أنه كان مرهف الشعور دقيق الحس ينفعل لأقل ألم يصيبه ، فكيف لا يتأثر بموت والده وهو أقرب الأقرباء إليه ! .

وأسرف نعيمه فى الحوار محاولا أن يتقمص طريقة جبران . ولكن على كل حال نجح نعيمه فى كتابته لسبرة رفيقه . وبروز قدرته على الخلق مرجعها لطبيعة الصلة بينه وبين جبران . وأجاد لأنه إنما كان يسخر من نفسه ومن صوفيته الحالمة ومن تناقضها مع حاجاته المادية ، فكشف لنا القناع عن حقيقة جبران وعن مثاليته الثائرة التى ارتطمت بصخرة الواقع .

وتميزت كتابة نعيمه بحماسة كامنة فى إخلاصه ، وبيقظة ذهنية شفعها بارهاف خاص فى التمييز والحدس والترجيح ، وكان له إدراك ذوقى دقيق عرف به كيف يختار المادة التى تستحق التسجيل ، فكان نعيمه ناقداً قبل أن يكون فناناً .

واندمج نعيمه فيما كتبه وبعث الحركة والحياة والتنوع وإثارة حب الاستطلاع والتشويق ، وقد استغل كثيراً من هذه الخصائص الفنية وبرع فى استغلال كل خاصية فى موضعها وعنى بابراز حياة جبران على طبيعتها . وعرض المادة فى لباقة منقطعة النظير دون أن يضيف إليها شيئاً من التعليقات فكتب نقداً للحياة من خلال كتابته لسبرة رفيقه .

وأخيراً أقول فى ثقة وإصرار :

إن الكلمة الأخيرة عن شخصية جبران لم تقل بعد ، وإن الترجمة الأخيرة لم تكتب حتى يشبع النهم البشرى من البحث والتتبع والاستقصاء .

فالفرصة متجددة والحق متقرر ليقول كل إنسان مقالة جديدة فى حياة جبران أو غيره ، على أن يرسل من ذلك ما يرسل فى حماية منهج سديد .

ابراهيم الدروى

جولة بين الكتب

نظرية التكامل الاقتصادى

تأليف : بيلا بلسا .
ترجمة : محمد عبد العزيز أحمد وآخرين .
مراجعة : د . صلاح الدين عبدالوهاب .
الناشر : الدار القومية — اخترنا لك — ٢٦٩ ص ١٧ × ٢٤ ث ١٠ قروش

الكتاب يضم معلومات مفصلة عن التكامل الاقتصادى استاتيكية وديناميكية إلى جانب العلاقة بين التكامل والسياسة الاقتصادية ، مع تطبيق هذه النظرية على مشروعات التكامل المعاصرة ، مثل السوق الأوروبية المشتركة ومنطقة التجارة الحرة والمشروعات المقترحة لتكامل أمريكا اللاتينية .

●

ابن رشيق — الناقد الشاعر .

تأليف : عبد الرءوف مخلوف
الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة — أعلام العرب — ٢٢٧ ص ١٧ × ٢٠ ث ١٠ قروش

يتناول الكتاب عصر ابن رشيق وحياته وأخلاقه وآثاره ومؤلفاته ثم يتناول ابن رشيق الناقد والشاعر وذلك فى دراسة تحليلية لهذا الأديب العربى الكبير .

●

أيديولوجيات الأمم الآخذة فى النمو

إعداد وتقديم : بول سيجموند .
ترجمة : تيسير محمود فهمى .
مراجعة : محمد عبدالله الشفقى .
الناشر : الدار القومية — اخترنا لك — ٣٣٥ ص ١٧ × ٢٤ ث ١٠ قروش

يتضمن الكتاب الأيديولوجيات التى تتبعها الدول الآخذة فى النمو فى قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وذلك من خلال الزعماء الذين يحكمونها أو يقودون نهضتها .

صـورة قـلميّـة



لألبرت شفيتزر
"كلنا إخوة"

تأليف
تشارلي ماي سيمون

ترجمة: د. نوال السعداوي

الناشر
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالاشتراك مع:
دار النهضة العربية

في أواخر أغسطس ١٩٦٥ ترك العالم بنفس الهدوء الذي جاء به إليه وعاش فيه رجل من كبار الرجال، هو ألبرت شفيتزر الفيلسوف، المؤلف، المحاضر، العازف الماهر، الطبيب الكبير. هذه بعض مواهبه الظاهرة وما خفى كان أكبر وأكثر نفعاً للإنسانية كاحساسه بآلام الناس، ومحاولته التخفيف عن هذه الآلام بأفعال لا أعتقد أن أحداً سبقه إليها.. ولنبدأ الحكاية من أولها..

ولد ألبرت في أواخر القرن التاسع عشر لقس في كنيسة جونسباخ إحدى قرى وادي مونستر بالألزاس نحيلا ضعيفاً. ما لبث أن اشتد عوده بفعل هواء جونسباخ الجيد ولبن بقرة الجارهم ليوبولد.

كان يؤخذ إلى الكنيسة منذ بلوغه عامه الثالث ليجلس في القاعة مع الكبار، فكان ميعاد ذهابه إليها كل أسبوع محل اهتمامه ولذلك كان يلبس أحسن الملابس حتى أصبحت الكنيسة ببرجها الشامخ هي عالمه الخاص.. وكانت الخادم وهي تعده للذهاب إلى الكنيسة وتسوى شعره تشده بشدة وتقول له: «يا لشعرك!.. جامح في باطنه، وجامح في ظاهره. إن اتجاه شعرك في نموه ليفصح عن مبلغ ما تنطوي عليه نفسك من جموح».

ومن هذه الكنيسة بدا الله لألبرت قريباً حين كان أبوه يعظ الناس بنفس الطريقة الهادئة البسيطة التي كان يتحدث بها الرجل في بيته.. وكان يتخيل أن الشيطان يبدو له ولكنه يختفي كالجبان حين يذكر اسم الله.

وفي أيام الآحاد كان يسمع من أبيه ذكريات مبعوث ديني اسمه «كازاليس» ذهب إلى أفريقية وكتب عن الأدغال المظلمة الحافلة بالأسرار التي لم تطأها قدم إنسان أبيض من قبل.. يروى قصصاً عن الفيلة والنسانيس والفهود.. والناس المقيمين هناك وحاجتهم إلى العناية والعطف والشفقة وكان ذلك أبلغ في النفوس أثراً.. كان الأب يترجم عن الفرنسية قول هؤلاء الناس سكان الأدغال للمبعوث.

[أنك ترى ما نحن فيه من شقاء، وأنت تستطيع أن تمد لنا يد العون، وقد وعدت أن تفعل. فابق هنا ولقنا من علمك وإنا لنعاهدك بأن نفعل كل ما تود. فإن أحزاننا تشبه النهر المصطخب. اصبر، ولينحسر الطوفان ولتبقين معنا!].

كان أول ما عرفه ألبرت بعد قرية جونسباخ من العالم هى كولمار التى تبعد مسيرة نصف يوم بالعربة والقطار حين ذهب إليها ليرى أمه فى العياد. وكان أهل هذه البلاد فخورين بتراث ماضيهم الحافل، يطوفون أيام الآحاد والإجازات بالتماثيل الكثيرة فى الحدائق والميادين، ويزدحم بهم المتحف الذى يذهب إليه ألبرت يوم الخميس مع غيره فيرى آيات الفن والجمال، ويشده ذلك إليه حتى يتخلف عن الجمع ويبقى أمام إحدى التحف لاينا لا يدرى كم من الوقت مضى .. ورأى صورة للمسيح وهو مصلوب ويوحنا يواسى أمه وشعره مشعث كشعر ألبرت نفسه، ولسبب لا يدريه ربط بين شعره الجامح هذا وشعر الرسول الطيب الذى يواسى مريم فى ابنها .. ألم يصبح يوحنا بشعره الجامح رسولا من الرسل؟

وفى الحديقة فى كولمار يقوم تمثال لا يمل الصبى من النظر إليه صنعه المثال الكولمارى بارتولدى الذى عمل فى صنع تمثال الحرية الذى قصد به أن يكون هدية من فرنسا إلى أمريكا .. كان التمثال لأمير البحر البطل بروات وبقاعدته التفت أشكال ضخمة تصور أركان الأرض الأربعة أوربا وأمريكا واستراليا وأفريقية.. والشكل الذى يرمز إلى القارة الأفريقية مثل تمثال زنجى منحن تشوب ملامحه مسحة حزن وكان هذا هو ما تملك مشاعر الصبى حتى عجز عن أن يمحوه من ذاكرته.

* * *

ورث ألبرت عن جده لأمه – وكان قسيساً أيضاً – الطبع النارى والثورة لأتفه الأسباب، ولكن يعقبهما هدوء وسماحة كما ورث عنه حبه للموسيقى التى ظلت جزءاً من حياته حيث إن والده بدأ يعطيه فيها دروساً منذ أن وصل إلى الخامسة من عمره، وفى هذه السن دخل أيضاً المدرسة وكان مميزاً عن كل زملائه من أهل القرية بملابسه الغالية وصحته الموفورة فكان موضع حسدهم وأحس أنهم ينظرون إليه على أنه يتمتع بميزات محرومون هم منها فما كان منه إلا أن لبس ملابسهم وامتنع عن أكل الطعام الذى لا يستطيع زملاؤه الحصول عليه.

وكان إلى ذلك شديد الرفق بالحيوان والزهر حتى أنه لم يجرؤ على صيد طير أو ضرب حيوان أو قطف زهرة، وإن فعل أنبه ضميره وأحس أنه اعتدى على حياة ما كان يجب أن يعتدى عليها: «ترى أى حق يبيح له أو لغيره أن يقتل أو يعذب مخلوقاً حياً من أى نوع ...».

وترك ألبرت مدرسة القرية بعد بلوغه العام التاسع إلى مدرسة على بعد ميلين من قريته فى مونستر، ثم ذهب إلى مدرسة أكبر فى مول هاوس فى الجزء الجنوبى من الألزاس حيث يستطيع أن يدرس اليونانية واللاتينية وكانت تبعد ساعتين بالقطار عن قريته، فلم يكن فى استطاعته أن يعود إلى بيته إلا فى الإجازات.

وكان قد جرب التصوير ثم كتابة الشعر ولكنه أدرك أن موهبته تكمن فى الموسيقى التى يستطيع التعبير بها عما يجيش بنفسه.

* * *

عرف ألبرت أنه سيظل فى مدرسة مول هاوس ثمانى سنوات فبدت أمامه دهراً طويلا وساوره حنين إلى بلده، ولذلك قل اهتمامه بالدروس وغرق فى أحلام اليقظة حتى أنه حصل على أضعف درجات فى المدرسة، ولما رأى أن ذلك أقلق والديه وأحزنهما عاد فخطط لحياته من جديد واستعاد مكانته بها وأصبح من المتفوقين المعدودين فى فصله.

انهمك أكثر فى عزف الموسيقى وأصبح يترك نفسه على سجيتها يعزف ما يشاء تلقائياً دون تقيد بقطعة مؤلفة لموسيقى كبير، بل من بنات أفكاره ما يعن

له وكان ذلك يقلق أستاذه ويغضبه منه إلى أن صمم على أن يثبت لهذا الأستاذ أنه يستطيع أن يعزف لموسيقار كبير كبيتهوفن، وموتسارت أو ماندلسون. وفعلا عزف له «أغنية صامته من مقام لا الصغير لماندلسون» بحيث جعل الأستاذ لا يحس بنفسه فى وقفته.. وحين انتهى من عزفه نحاه عن البيانو وعزف له بدوره مقطوعة أخرى ركأنه أصبح نداً لأستاذه.

وكان أهم ما يحبه ألبرت من دروس هو درس التاريخ ويقرأ كثيراً مقالات السياسة وشئون الحكم فى الجريدة اليومية، حتى أنه فى الامتحان النهائى، حملت شهادته كلمات بخط مبعوث إدارة المدرسة القادم من ستراسبورج يثنى فيها على ما أظهره فى امتحان التاريخ.

وكان أول مرة يدخل فيها مسرحاً حين مثلت أوبرا تانهاوزر لفاجنر فى مول هاوس وسمح له بأن يشاهدها وظل عدة أيام بعدها مستغرقاً فى ذكراها متى غاب عنه أو كاد ما يدور حوله من أمور.

وانقضت السنوات الثمانية له فى مول هاوس وأخذ يستعد للالتحاق بجامعة ستراسبورج، ومن ثم تفتحت أمامه أبواب العالم جميعاً على أنه مع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فى الذين لم يسعدهم الحظ عموماً فى الحياة وتساءل:

[لم تكون حياته أسعد من حياة الآخرين؟ وبأى عدل يتقبل هذه السعادة كأنها من حقه على حين يكابد غيره الآلام والأحزان.. ماذا يمكن أن يفعله من أجلهم؟!]

• • •

كان ألبرت قد بلغ الواحدة والعشرين من عمره حين وصل إلى ستراسبورج فى نهاية أكتوبر سنة ١٨٩٣ وقد صمم على أن يعمل ما يحب وكما يريد فى السنوات المقبلة من عمره حتى سن الثلاثين، ثم يكرس حياته بعد ذلك لخدمة البشر على نحو مباشر وأكثر فعالية.. قضى شتاء فى باريس وصيفاً فى لندن ثم عاد إلى جامعة ستراسبورج ليعد رسالة الدكتوراه فى الفلسفة واللاهوت جميعاً، فلما حصل على إجازته عين ناظراً للكلية اللاهوتية التى التحق بها طالباً وعمل كذلك قسيساً فى كنيسة القديس نيقولا الصغير حيث كان يعمل بها أيضاً عمه الذى تسمى باسمه ألبرت شفيتزر.. وكان يلقى محاضرات فى الفلسفة بالجامعة.. ثم كان يكتب فكتب مقالا عن فن صناعة الأرغن والعزف عليه فى ألمانيا وفرنسا، وألف كتاباً سماه باخ الشاعر الموسيقار، ويعد العدة لكتاب يودع فيه نتيجة بحثه لحياة المسيح.

وكان وهو طالب قد التحق مع غيره من زملائه بمؤسسة تقوم بالخدمة الاجتماعية يطلبون الهبات من الأثرياء لأسر الفقراء والمحتاجين، وقبل أن يبلغ عمره الثلاثين بشهور قليلة قرأ نشرة صغيرة توزعها جمعية البعثة الدينية فيها مقال بعنوان: «حاجات بعثة الكونغو الدينية».

ويتحدث هذا المقال عن الحاجة المعهودة إلى عاملين يعملون فى أفريقيا، وقد وصف كاتب المقال حالة إقليم جابون أقصى أقاليم المستعمرة الفرنسية القريبة من خط الاستواء فى أفريقيا ووجه الدعوة فيه إلى القادرين على أن يتطوعوا لسد هذه الحاجة الملحة: «إن الرجال والنساء الذين يستطيعون أن يلبوا عن طواعية واختيار نداء الرب قائلين: رباه! إنى ملب نداءك. أولئك هم القوم الذين تحتاج إليهم الكنيسة». وظل ألبرت يفكر فى هذا المقال الذى تجاوب مع ما قرأه وعرفه عن أفريقية وما سمعه من أبيه عن هذه القارة.

• • •

وتحقيقاً لما عقد العزم عليه فقد دخل فصل التشريح وحضر محاضراته وحضر محاضرات علم

وظائف الأعضاء والكيمياء الطبيعية وعلم الحيوان وعلم النبات بين دهشة الطلبة والأساتذة على السواء بل وعميد مدرسة الطب نفسه، وكانوا يرونه ويقولون إنه رجل شاب لامع وإن كان قد مست عقله لوثة خفيفة . . وقال ألبرت بينه وبين نفسه : « لا على ، فان مثل هذه الأمور لا بد أن تحدث » .

ودخل ألبرت امتحانه الأخير فى عام ١٩١١ وهو فى السابعة والثلاثين من عمره هذا بالطبع إلى جانب شهادتى دكتوراه فى الفلسفة وفى اللاهوت ، وكان قد أنبأ بعض خاصته فى خطاباته بعزمه على السفر إلى أفريقية حالما ينتهى من دراسة الطب، ومنهم من حاول بكافة الطرق أن يثنيه عن عزمه نظراً لما ينتظره من مستقبل كبير ، ولكنه أصم أذنيه وازداد اصراراً فاستقال من منصب ناظر الكلية اللاهوتية، وانتقل ليعيش فى الكنيسة اللوثرية فى الألزاس ويحضر محاضرات الطب ويلقى محاضرات الفلسفة ويعزف على الأرغن فى الكنيسة . . واضطر أن يصارع الظروف المالية بعد استقالته من منصب ناظر الكلية اللاهوتية ولكن شهرته فى الموسيقى والكتابة كفياه هذا الصراع .

وكان من أصدقاء ألبرت والمعجبين به هيلين بريسلاو ابنة أحد أساتذة التاريخ فى جامعة ستراسبورج التى تعاهد معها على الزواج، وشخص إلى باريس ليتولى العمل فى المستشفى ويزداد درساً لطب المناطق الحارة . وكان شهر عسل حافل حيث جمع فيه وبعده ما يكفيه من مال بفضل الكونشرتات التى عزفها ، والمحاضرات التى ألقاها ، وبفضل سخاء أصدقائه وزملائه ومعجبيه والمصلين فى كنيسة القديس نيقولا ، وملأ سبعين صندوقاً من صناديق الشحن وأغلقت أغطيتها باحكام ووضعت على كل صندوق قائمة مفصلة بما تحتويه من عقاقير وضمادات، وجميع المواد اللازمة لإقامة مستشفى من العدم . .

وأشتريت تذكرتان للسفر على الباخرة حتى ثغر جنتيل فى أفريقيا الفرنسية الاستوائية .

* * *

كان ألبرت قد بلغ الأربعين من عمره حين حل يوم سفره ومعه زوجته هيلين ، وبلغت السفينة المقلة لهما مع غيرهما ثغر ليبر فيل ورأس لوبيز فغادراها وكان لا يزال أمامهما مائتا ميل يقطعانها قبل بلوغهما مقصدهما . . ولما وصلا كان أعضاء البعثة الدينية بكل هيئتهم ينتظرونهما عند المرسى وأوصلوهما إلى بيتهما الجديد ، وهو بيت خلوى صغير من طابق واحد به أربع غرف صغيرة وشرفة تحيط بالبيت من كل جانب .

وفى صباح أول يوم من وجودهم فى هذا المكان كان على الطبيب أن يبدأ عمله فلقد كان ينتظره خارج البيت أكثر من مريض حتى قبل أن يخرج المعدات الطبية من صناديقها .

* * *

سرت الأنباء بين القرى بأن رجلا أبيض له القدرة على شفاء الآلام والأسقام جاء ليعيش بينهم وسموه « أوجانجا » أى الرجل الساحر . وكان هناك رجال ونساء عجائز وأطفال على ظهور أمهاتهم يثيرون القلق ولا شك أنهم كانوا هناك فى أشد الحاجة للعون ولكن الطبيب كان يعالج مرضاه فى العراء لأنه لم يكن هناك مستشفى . . ودبر من عشة فراخ مهجورة مأوى للمرضى من المطر والعواصف والشمس المحرقة ، ريثما يبنى مستشفى وكان بذلك يعالج يومياً حوالى ثلاثين أو أربعين مريضاً مصابين بأمراض مختلفة كالملاريا ومرض النوم والجذام والقروح ولدغات الحشرات وكسور العظام ومنهم من كان يصاب بلدغة ذبابة تسى تسى فيموت قبل علاجه .

وانتشرت أخبار شفائه للأمراض فكان

كأسطورة فهو فى نظر هؤلاء القوم أقوى من سحرتهم حتى أنهم قالوا عنه أنه يستطيع أن يقتل شخصاً ثم يرده إلى الحياة مرة أخرى ، وكانوا لا يعرفون أن ذلك هو التخدير الذى يسبق العمليات الجراحية .

وكان الدكتور شفيتزر يعطى كل مريض تذكرة من قطعة ورق مقوى معلقة فى خيط عليها رقمه ليسهل الاستدلال عليه فى السجلات إذا ما عاد إليه ثانية ، فكانوا يعلقونها فى رقابهم معتقدين أنها تميمة أو رقية ، وكان الأفريقى يعلق معها أحياناً أكياساً صغيرة فيها ريش أحمر وصلصال ومخالب فهد وقطع من جمجمة بشرية لإنسان يقتلوه لهذا الغرض .

[وكان هؤلاء القوم لا يعتقدون أن المرض نتيجة سبب طبيعى ، بل بفعل روح شرير أو رقية من فعل عدو لهم من البشر وأن دودة دخلت أجسامهم تأكل الجزء المصاب] حتى أن الواحد منهم يصرخ واصفاً أعراض المرض للطبيب : « إن الدودة ترعى فى معدتى » .

وحين افتتح المستشفى استقبل فيه شفيتزر المرضى .. جميع المرضى حتى هؤلاء العجائز الذين طردوا من قراهم وقبائلهم لمرضهم وبطلان نفعهم للقبيلة ، وكان يقول عن هؤلاء : « .. مرحباً بهم ، إن مستشفاى مفتوح لكل من يعانون آلام المرض » .

وعن ذلك العام كتب الطبيب تقريره وقال فيه : « إنه استطاع أن يجلس هو ومرضاه جنباً إلى جنب ، وأن يعرفوا عن خبرة معنى الكلمات ، « كلكم اخوة » .

* * *

فى ستة عشر شهراً كان شفيتزر قد عالج ألفين من المرضى لأنه قد تفرغ تماماً لهذا العمل ، وهجر الكتابة والعزف والوعظ الذى تعهد بألا يمارسه فى أفريقيا قبل أن يرحل إليها ، ولكنه بمرور الوقت وجد نفسه يعظ ويعزف ويكتب أيضاً .

وكانت الأمور تسير ولكن .. حدث أن قامت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ واعتبر شفيتزر أسير حرب عند الفرنسيين وحرم عليه الاتصال بالبيض أو السود على السواء ولزم بيته فلم يستطع حتى رؤية مرضاه فى المستشفى القريب من داره إلى أن تدخل أحد أصدقائه فى باريس وأطلق سراحه بعد ثلاثة أشهر فعاود سيرته كطبيب وامتلأ المستشفى بالمرضى من الوطنيين والبيض الذين منعتهم الحرب من السفر ، فكان يضطر إلى ترك سريره فى داره لمريض وينام هو على جزء من الشرفة .

* * *

ولكن حدث أن أتى الأمر فجأة بأن يحمل شفيتزر وزوجته إلى أوربا أسيرى حرب ، ووضعا فى معسكر فى جبال البرانس قرب التخوم الأسبانية فى دير قديم متهدم مهجور مع خليط عجيب من الناس من كل صنعة وكل جنس . ثم نقل بعد فترة هو وزوجته إلى معسكر فى سانت ريمى من أعمال بروفانس ، ثم بعد ثلاثة شهور ونصف أتت أنباء بأنهم سيردون جميعاً إلى وطنهم فى الألزاس فى مقابل عدد مماثل من الأسرى الفرنسيين فى ألمانيا .

وانتهت الحرب فى نوفمبر ١٩١٨ وأصبحت الألزاس فرنسية فأصبح شفيتزر بالتالى فرنسياً ، وعرض عليه عمل فى مستشفى البلدية فى ستراسبورج وقسيساً لكنيسة نيقولاى الصغيرة إلى جانب إلقاء محاضرات فى مختلف بلدان أوربا ، كما صدر له فى مدى ثلاث سنوات خمسة كتب وذاع صيته .. ولكنه رغم ذلك وجد نفسه يعود ثانية لأفريقيا ليخفف هناك من آلام الإنسانية رغم أن زوجته وابنته الصغيرة قد تخلفتا عنه لعدم مناسبة جو أفريقية لصحتهما .

* * *

جاء معه إلى أفريقية طبيب شاب فى فترة تدريب انتهت بعد أربعة أشهر فعاد ثانية إلى أوربا ،

ثم جاءت من الألزاس ممرضة وطبيب شاب آخر وممرضة ثانية الزاسية أيضاً وطبيب شاب ثان سويسرى . . وأصبح المستشفى ملاذاً لا للمرضى والعجائز والأطفال اليتامى فحسب ، بل للمجانين والمجذومين أيضاً ، وكذلك كان كثيرون من الناس يحضرون إليه هرباً من الأخذ بالثأر .

وكان المريض فى أول الأمر من بعض القبائل يرتجف وهو داخل المستشفى وتبدو فى عينيه نظرة الهلع ، لاعتقاده بأنه قد وقع بين جماعة من آكلى لحوم البشر حين يمدد على منضدة الجراحة لإجراء جراحة عاجلة .

فكر الدكتور شفيتزر بعد أن كثر المرضى والأطباء فى أن يجعل للمستشفى مزرعة خاصة تمده بالطعام واهتدى إلى المكان الملائم ليزرع فيه الأرز والفواكه المشهورة بها أفريقية .

* * *

وجمع الرجل الطبيبين والممرضتين اللذين يعملون معه وأطلعهم على ما فكر فيه ووافق عليه مأمور المنطقة ، وهو إقامة المستشفى فى مكان جديد هو قرية قبيلة الجالوا القديمة التى هجرها أهلها وتبلغ مساحة المستشفى والمنطقة التى سيزرعون فيها مائة واثنان وسبعون فداناً . . ورسمت خطة خمسة مبان تؤوى أكثر من مائتى مريض بأقربائهم



وأصدقائهم الذين يأتون معهم ، وفى هذه الأثناء بلغت الأنباء الدكتور شفيتزر بأن جامعة براغ قد منحته درجة علمية فخرية .

وأقبل طبيبان أوربيان آخران إلى جانب بعض ممرضات أخريات وأصبح من الميسور الآن أن ينتقل طبيب إلى مريض فى قريته .

* * *

وبتقدم وسائل المواصلات أصبح السفر إلى أفريقيا سهلا ولذلك أصبح شفيتزر يقوم بزيارات منتظمة تقريباً لبلده ومن بلده يذهب إلى بلدان أوربية أخرى وإلى أمريكا يلقى محاضرة أو يعزف على الأرغن ، وألف عدة كتب أخرى منها : صوفية القديس بولس الرسول ، وخلاصة حياتى وأفكارى ، وكتاب عظماء المفكرين فى الهند .

وشبت الحرب العالمية الثانية وجرى صراع بين جنود ديجول وفيشى للاستيلاء على لامبارينيه وأصدر قواد الطرفين أمراً بضرب المستشفى . . . وبانتصار جنود ديجول انقطع هذا الإقليم عن فرنسا وعن أوربا ولكنه كانت تصله سفن من إنجلترا وأمريكا فى بعض الأحيان . . وحدث أن جاءت مركب من أمريكا بأشياء للمستشفى فكان فيها أحذية وملابس وطعام وأدوية وأشياء أخرى كثيرة .

وجاءت الأنباء بأن شفيتزر حصل على جائزة نوبل للسلام وكانت الجائزة ومبلغ آخر تبرعت به النرويج من حظ ثلاثمائة مريض بالجذام ، وأمكن بفضل العقاقير أن يشفوا ويعودوا إلى قراهم وكان الرجل يجلس ليقرأ بعض ما كتب القدماء ومن ذلك ما كتبه المفكر الصينى القديم لاوتسى :

[إن الأسلحة أدوات مدمرة لم تخلق لإنسان نبيل ، ولا يستخدمها إلا ذلك الذى لا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر . . . إن من يطربه النصر يطربه القتل . ولا مناص للقائد فى الاحتفال بالنصر أن يتخذ مكانه ، كما جرت العادة ، فى حفلات الجنائز]

هذه هى الصورة التى رسمتها المؤلفة لألبرت شفيتزر وهى من أدرى الناس بحياته ، فقد تتبعت خطاه فى كل من الالزاس وأفريقية فلقد ذهبت إلى مسقط رأسه فى جونسباخ وذهبت إليه فى أفريقيا عامى ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ إلى أن أكملت هذا الكتاب الذى قال عنه شفيتزر نفسه : « لقد وجدت فيه محبة ، حتى ليشعر المرء أنك تعرفين الجو الذى عشت فيه ، وتعرفيننى كما أنا فى الواقع » وهذا بالفعل أصدق ما يقال عن الكتاب لأن المؤلفة رسمته بريشة فنان وتشويق قلما يتوفر لمثل قلمها ، فهى بلا ريب قد أحست بما يعتمل فى صدر هذا الرجل الكبير الذى تعددت مراهبه من علم وفن، ولا عجب فى ذلك فهى نفسها فنانة درست الفن فى معهد الفنون بشيكاغو كما درست النحت والرسم مع الفنان الفرنسى الكبير بوردل فلم لا تحس بما يحس به شفيتزر الموسيقى الكاتب الأديب . . ! !

وإن كان قد توفر لألبرت شفيتزر مثل هذا القلم المرهف ليصور حياته فقد توفر لقارىء المترجمة قلم لا يقل ارهافاً عن قلم المؤلفة ، وأقصد المترجمة الدكتورة نوال السعداوى التى تخصصت بكلية الطب فى أمراض الصدر ومارست الأدب فكأنها كانت تدرس أمراض الصدر لتكتب ما يجيش بالصدر، حتى أن القارىء لا يحس مللا ولا ارهاقاً أثناء قراءته الكتاب ، بل لا يتركه إلا حين يأتى عليه . . وأرجو أن يكون فى هذا الكتاب قدوة للشباب العربى فيروا بأنفسهم كيف أن الرجل لم تبهره الأضواء ولم يسكره النجاح ، بل ذهب إلى مجاهل أفريقية حيث لا يعرفه أحد هناك ولا يصفق له معجب،أو تخطف أبصاره أضواء آلات التصوير والسينما، بل ذهب فى هدوء ليخدم الإنسانية ويخفف من آلامها مدفوعاً بدافع من نفسه لا غير .

أحمد علام

جولة بين الكتب

اللغة السينمائية

تأليف : مارسيل مارتن .
ترجمة : سعد مكاوى .
مراجعة : فريد المزاوى .
الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة ٣١٠ ص ١٧ × ٢٤
ث ١٨ قرشاً

يبحث الكتاب التصوير السينمائى فى خمسة عشر فصلا عن الخصائص العامة للصورة والدور الخلاق لآلة التصوير والإضاءة والملابس والديكورات ، والايجازات والانتقالات والظواهر الصوتية وعمق المجال فى الصورة وصور الأفلام وشرحها ،وغير ذلك من الموضوعات الهامة.

●

السلم الرخامى

تأليف : عبدالله الكبير .
الناشر : دار المعارف بمصر .
٢٦٣ ص ١٤ × ٢٠ ث ٤٢ قرشاً

قلبان أحدهما فى خريف العمر والآخر فى ربيعه ، تصدمهما حقائق الحياة ، تعرف من البداية ماذا يكون موقفهما إزاء هذه الحقائق . كل ذلك فى إيقاع موسيقى حزين ، مكتوب بلغة عربية سليمة وجزلة ، مدعم برسوم بديعة للفنان يوسف فرنسيس . الشيء الملاحظ فى الرواية أنه لا يبعد أن يكون المؤلف نفسه هو بطلها وصاحب مأساتها .

●

سبارتاكوس – الجزء الثانى

تأليف : هوارد فاست .
ترجمة : أنور المشرى .
مراجعة : على أدهم .
الناشر : دار الكرنك بالاشتراك مع مشروع الألف كتاب .
٣٤٨ ص ١٤ × ١٧

ترجمة تاريخية طويلة مكتوبة بأسلوب قصصى لهذا المحارب الكبير الذى قاد ثورة العبيد فى الزمن القديم، وحارب بشجاعة ضد سادته الرومان ، وكان أقرب إلى النصر ، لولا أن الأقدار لم تكن فى جانبه .

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

● أخذت «الدار المصرية للتأليف والترجمة» تطرق باباً آخر فى نشر التراث العربى ، فهى بعد أن أعادت نشر كثير من كتب هذا التراث فى الأدب واللغة والتاريخ مثل : «عيون الأخبار» و «الأغانى» و «صبح الأعشى» و «لسان العرب» وغيرها ، بدأت تخدم هذا التراث فى (الناحية الدينية) ، وهذه ناحية جديرة بعنايتها .

وها هى تعيد نشر كتاب «الأم» للإمام ابى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى الذى ولد فى «غزة» سنة ١٥٠ هـ ، ثم جاء إلى مصر سنة ١٩٩ هـ وأقام بها إلى أن مات عام ٢٠٤ هـ . وهو أول من تكلم فى أصول الفقه ، وهو الذى استنبطه . وقد جمع تلميذه الربيع بن سليمان بعض كتب الشافعى وسمّاه كتاب «الأم» بعد أن سمع من الشافعى هذه الكتب وبيّن ما فاته سماعه وما وجده بخط أستاذه .

وللشافعى أسلوب يختلف كل الاختلاف عن أساليب رجال الفقه ، فهو أسلوب أدبى ممتع . قال عنه ابن هشام : «الشافعى كلامه لغة يحتجّ بها» . وقال الأصمعى : «صححت أشعار هذيل على فتى من قريش ، يقال له محمد بن إدريس الشافعى» .

وكان هذا الكتاب قد طبع فى سبعة مجلدات ، وستصدر الطبعة الجديدة بمقدمة للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الشافعى كانت له نظرية متكاملة فى (التعايش السلمى) تقدم بها الدكتور عز الدين فودة إلى مؤتمر لاهاى للعلاقات الدولية . وقد أقرّها هذا المؤتمر ، وأصبحت تدرس الآن فى جامعات أوروبا . وقد أعلن المندوب الروسى فى المؤتمر أن النظرية الروسية فى التعايش السلمى لا تختلف فى الشكل والمضمون عما ذهب إليه الشافعى

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

● كذلك تعيد هذه الدار نشر كتاب «إحياء علوم الدين» لأبى حامد محمد بن محمد الغزالى الذى ولد فى الطابران قصبة طوس عام ٤٥٠هـ . والمتوفى عام ٥٠٥ هـ ويلقب بحجة الإسلام .

وتعكف الآن لجنة مؤلفة من كبار المتخصصين فى الفلسفة وعلم النفس والتربية والأخلاق على إعداد دراسات عن جوانب الفكر الرفيع فى كتاب الغزالى لتصدر فى مقدمة ضخمة قبل صدور هذا الكتاب .

● كنت قد أشرت فى العدد الرابع عشر الصادر من هذه المجلة فى شهر يوليه سنة ١٩٦٥ إلى ظهور (الجزء الأول) من كتاب « مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى » لابن منظور صاحب معجم « لسان العرب » بتحقيق الأستاذ إبراهيم الأبيارى . وقد اختصر ابن منظور كتاب « الأغانى » للأصفهانى .

وتقوم « الدار المصرية للتأليف والترجمة » متعاونة مع « معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية » على نشر هذا الكتاب فى ثمانية أجزاء .

ونضيف هنا أن (الجزء الثانى) منه قد ظهر بتحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج متضمناً ستاً وأربعين ترجمة تبدأ من حرف الباء وتتناول قسما من حرف الحاء حيث ينتهى بترجمة حمزة الحنفى من شعراء الدولة الأموية .

كما ظهر (الجزء الرابع) بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ويضم واحدة وسبعين ترجمة تبدأ من حرف الراء بربيعة بن مكدم ، وتنتهى بقسم من العين عند ترجمة الأحوص عبدالله بن محمد .

ويوشك (الجزء الثالث) الذى قام بتحقيقه الأستاذ عبد العليم الطحاوى أن يظهر خلال هـــذا الشهر . ويمتاز هذا الجزء بأنه يضم أخبار أبى نواس ، وهو قسم خلت منه طبعات كتاب « الأغانى » .

وبدأت « مطبعة عيسى البابى الحلبى » التى تتولى طبع هذا الكتاب فى طبع (الجزء الخامس) منه بتحقيق الأستاذ عبد العزيز أحمد .

● كما أتمت «مطبعةمصر» طبع الجزء الثالث من القسم الثانى من كتاب« تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى » للقاضى جمال الدين محمد بن ســالم المعروف بابن واصل الحموى الذى يحققـه الأستاذ الدكتور طه حسين والأستاذ إبراهيم الأبيارى .

وبظهور هذا الجزء الثالث من القسم الثانى يكون قد ظهر من الكتاب ستة أجزاء وبقى جزء سابع سيضم الفهارس المنوّعة لمادة الكتاب كله .

● ومن الكتب التى قام بتحقيقها الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم أخيراً كتاب « ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب » لأبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ . وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يتمثل بها ، ويكثر فى النظم والنثر وعلى ألسنة الخاصة والعامة استعمالها ؛ كقولهم : « غراب نوح ، ونار إبراهيم ، وذئب يوسف ، وعصا موسى . . . » وخرج ذلك من واحد وستين باباً .

وقد ذكر الأستاذ المحقق أن بعض العلماء قد شاركوا الثعالبى فى تأليف هذا النوع ، منهم ابن الأثير فى كتاب « المرصّع » — وقد قصره على الأذواء والآباء والبنين والبنات — والمحبى فى كتاب « ما يعوّل عليه فيما يضاف وينسب إليه » — وقد سار فيه سيراً معجميا وأخلاه من الأخبار والقصص واختصر فيه الشواهد . كما وقعت منه بعض فصول لأبى هلال العسكرى فى كتاب « جمهرة الأمثال » والميدانى فى كتاب « مجمع الأمثال » وابن سيده فى كتـــاب « المخصص » ؛ إلا أن كتاب الثعالبى أحسنها فصولا وأبواباً ، وأسهلها شريعة ، وأعذبها مورداً ، وأجمعها لصنوف الآداب وروائع الأخبار ، ومنتحل الأشعار ، وسوائر الأمثال .

وقد حقق الكتاب وصحح أخطاء مخطوطتيه المحفوظتين بدار الكتب والطبعة التى نشرها المرحوم محمد أبو شادى سنة ١٣٢٦ هـ .

ثم يسَّر مادة الكتاب بالفهارس المنوَّعة التي ختم بها الكتاب حتى بلغت صفحاته ٨٢٠ صفحة ، وقد نشرت هذا الكتاب «دار نهضة مصر للطباعة والنشر».

● دفع الأستاذ عبد السلام محمد هارون إلى « دار القلم »بالجزء الأول من كتاب « خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » لعبد القادر بن عمر البغدادى المتوفى بمصر سنة ١٠٩٣ ﻫ .

والكتاب علاوة على فائدته اللغوية فى شرح شواهد شرح الكافية يضم الكثير من تراجم الشعراء الجاهليين والإسلاميين . ويمتاز بأنه ينقل نصوصاً كثيرة نقلا صحيحاً عن أصولها ، وأن كثيراً من هذه النصوص قد فُقد أو ظهرت منها نصوص مبتورة . وقد كانت هذه النصوص ، كما كانت دواوين كثيرة لشعراء ممن ترجم لهم، تحت يده فى خزانته قبل ضياعها .

وقد نشرت طبعة كاملة لهذا الكتاب سنة ١٢٩٩ ﻫ فى أربعة مجلدات كبيرة ، ولكنها غير مضبوطة أو محققة . كما أن محاولات مختلفة بذلت فى سبيل نشر هذا الكتاب الذى يعتبر بحق خزانة كبيرة ؛ ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها التمام فى إصدار الكتاب كاملا .

وستظهر طبعة الأستاذ عبد السلام هارون فى اثنى عشر جزءاً مضبوطة بالشكل ، ومخرَّجة تخريجاً وافياً ، ومحققة على نسخة الشنقيطى ، ومذيَّلة بالفهارس، الفنية التى تيسر مادة الكتاب للباحثين .



● منذ عشرين سنة نشرت « دار إحياء الكتب العربية : عيسى البابى الحلبى وشركاه » كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ﻫ . بتحقيق المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر .

وهو كتاب يعتبر من مصادر الأدب الأولى ترجم فيه للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلُّ أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب ، وفى النحو .

والطبعة التى قام بتحقيقها الأستاذ الشيخ شاكر تعتبر من الكتب التى حققت تحقيقاً وافياً ودقيقاً ، لذلك أحسنت أسرة هذا العالم الجليل صنعاً ، إذ قامت باعادة طبع هذا الكتاب الجديد ، وتقوم الآن مطبعة « دار المعارف » بطبعه .

● ومع مقدم الربيع قدمت « دار المعارف » أجمل تحية بأعذب لحن وأروع زهرة حين أخرجت للناس ديوان «حكاية قلب » للشاعر العاطفى صالح جودت . وشعر صالح نغم لا يملُّ القارئ ترداده ، ولا يسأم السامع إنشاده ، فهو نغم راقص طروب ، عذب حنون ، منتزع من القلب ليدخل إلى القلب .

وهو كما يقول قد « لملم أجمل أغاريده الموهوبة لوجه الجمال . . جمال السماء . . وجمال النيل وجمال كل شقراء وكل سمراء . . ليهديه إلى كل من ألهمته بيتاً أو معنى أو حرفاً فى هذا الديوان » .

وقد ضم هذا الديوان « حكاية قلب » واحدة وستين قصيدة كتبها الشاعر ، وسبع قصائد ترجمها شعراً .

ومن يستمع إلى « حكاية قلب » يظل كالمستمع إلى شهر زاد يستزيدها كل مساء إلى أن ينبلج الفجر ، وتفضّ صبغة الكحل كما يقول الشاعر ، ليستأنف من جديد الاستماع والاستمتاع .

● فى العدد الحادى والخمسين من مجلة «المجلة» الصادر فى مارس ١٩٦١ أشرت إلى الرسالة التى كان قد تقدم بها الدكتور عبد العزيز مطر المدرس بكلية البنات بجامعة عين شمس — للحصول فى ذلك الحين على درجة الماجستير فى الدراسات اللغوية الحديثة من كلية دار العلوم فظفر بها بتقدير ممتاز . وكان موضوع هذه الرسالة هو « دراسة لغوية فى لهجات البدو فى مصر » . وقد اختار إقليم ساحل مريوط ليدرس منه هذه اللهجات لأن هذا الإقليم جميعه — فيما عدا قلة ضئيلة — من قبائل مترابطة ؛ حتى أن بدو المنطقة يسمون « قبائل أولاد على » باسم أكبر قبائل البدو فى الصحراء العربية .

والدراسة التى قام بها دراسة لغوية وصفية تحليلية تسجل أهم الظواهر اللغوية للّهجة من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية ، وتشرحها ، وتضع القواعد التى تخضع لها هذه الظواهر ، مع محاولة تعليل ما يمكن تعليله منها فى ضوء النظريات الحديثة ، وتقارن بين مسلك اللهجة ومسلك اللغة العربية الفصحى أو مسلك بعض اللهجات العربية المعاصرة .

وستنشر هذه الدراسة أخيراً فى « مشروع المكتبة العربية » . وقد اضطرت « مطابع الدار القومية » لسبك حروف جديدة لرسم حروف هذه اللهجة ، إذ أن هذه أول مرة يطبع فيها كتاب عن لهجة معاصرة باللغة العربية .

● كما سينشر له فى « مشروع المكتبة العربية » أيضاً كتاب « لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة » وهو دراسة علمية لموضوع اللحن ، ونشأته ، وتطوره ، وتفسيره فى ضوء علم الأصوات اللغوية ، وعلم دلالة الألفاظ والقوانين اللغوية الحديثة .

● وكما عنى الدكتور مطر فى تآليفه بما عرف بلحن العامة ، فقد عنى بتحقيق ما وضع الأقدمون فى هذا الباب حيث قدم إلى لجنة التراث العربى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية كتاباً سيصدر فى هذه السلسلة هو « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » للإمام اللغوى والمحدّث والأديب والشاعر أبى حفص عمر بن خلف بن مكى الصقلى المتوفى عام ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) ، وهو من أكبر الكتب فى موضوعه يضم خمسين باباً قسمها المؤلف حسب أنواع اللحن الذى وقع من الخاصة والعامة فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى . وقال فى مقدمته : « جمعت من غلط أهل بلدنا ما سمعته من أفواههم ، مما لا يجوز فى لسان العرب ، أو مما غيره أفصح منه وهم لا يعرفون سواه ، ونبهت على جواز ما أنكر قوم جوازه ، وإن كان غيره أفصح منه ؛ لأن إنكار الجائز غلط . وعلقت بذلك ما تعلق به من الأوزان والأبنية والتصريف والاشتقاق وشواهد الشعر والأمثال والأخبار » .

● وقد أسهم « المجمع العلمى العربى » فى بغداد فى نشر كتاب آخر حققه الدكتور مطر ، وهو كتاب « تقويم اللسان » لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . وهذه أول مرة يسهم فيها المجمع العراقى فى نشر كتاب محققه ليس من أبناء العراق .

● نشرت مكتبة « عالم الكتب » بالقاهرة كتاب « نحو فلسفة للتربية » تأليف بول وودرنج وترجمة الدكتورين سعد مرسى أحمد وفكرى حسن ريان . وقد عرض فيه مؤلفه لمختلف الآراء التربوية

فى الولايات المتحدة الأمريكية فى حيدة واضحة ، إذ استمع لآراء الكلاسيكيين وعرضها من وجهة نظرهم عرضاً أميناً ، ثم عرض لآراء جماعة البراجماتيين كما ينادون بها . وقد رأى المترجمان أن هذا الكتاب يعدّ من أفضل الكتب التى تناولت قضية الصراع بين التربيتين التقليدية والتقدمية بالشرح والتحليل والنقد .

وباتخاذ موقف محايد نقل المترجمان هذا الكتاب ليقدما للمهتمين بشئون التربية فى العالم العربى بأكمله صورة واضحة لحقيقة هذا الصراع وأسسه ، آملين أن تسهم هذه الترجمة فى وضع النقط فوق الحروف — على حد تعبيرهما — لبعض قضايانا التعليمية من أجل تربية أفضل للأجيال الصاعدة فى مجتمع متطور محتاج إلى مزيد من النقد البنّاء ، وإعادة النظر فى أهدافنا وفلسفتنا التعليمية حتى تستطيع المدرسة الإسهام فى إعادة تشكيل الحياة على أرضنا العربية .



● ومن الكتب التى نشرتها مكتبة « عالم الكتب » أيضاً كتاب « الذرة ومنافعها السلمية » تأليف مارتين مان ، وترجمة الدكتور عبد الحميد أمين ، وهو كتاب يبحث فى أن الطاقة الذرية ذات فائدة فى مطالب السلام العادية ، وفى الوسائل التى توفرها هذه الطاقة من أجل أن يحيا الناس حياة أفضل ، وذلك بإعطائهم ما يحتاجون ، وبوقاية صحتهم ، وبإشباع فضولهم فى معرفة كُنْه العالم الذى يعيشون فيه . ويسجل ما أمكن عمله فعلا ، وما يتوقع حدوثه فى المستقبل ويصبح حقيقة واقعة بعد أن كان ضرباً من الأوهام . ويشرح ببساطة أهم الطرق وأكثرها تشويقاً فى كيفية استخدام هذه الطاقة . ولم يصدم المؤلف قارئ كتابه باصطلاحات علمية معقدة . وقد ذيل الكتاب بمعجم ييسر الرجوع إلى أهم المصطلحات العلمية المتداولة فى الكتاب بعد شرحها شرحاً يجلوها للقارئ .

● أشرت من قبل فى هذه المجلة إلى المشروع الكبير الذى اضطلعت به « مكتبة المثنى » ببغداد وهو إعادة طبع النوادر من تراثنا العربى الذى نشر فى أوروبا وغيرها من البلدان ، وذلك بطريقة الأوفست فيسرت للناس الحصول على هذه الطبعات التى كان العثور عليها مشقة وعناء وإرهاقاً ، وأشرنا مع كلمتنا إلى أكثر ما تم طبعه .

وقد ظهر أخيراً مما أعادت طبعه « دار المثنى » كتاب « المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب » وهو جزء من كتاب « المسالك والممالك » تأليف أبى عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ وهو صاحب « معجم ما استعجم » وهو معجم يعرّف بالبلدان ، وصاحب « اللآلى فى شرح أمالى القالى » .

وكانت طبعته الأولى التى صوّرت عنها قد نشرت فى الجزائر سنة ١٨٥٧ .

● وكتاب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم » لمؤلف مجهول . وكان هذا الكتاب قد طبع فى مدريد سنة ١٨٦٧ حين نشره وترجمه لافوينتى إلى ألكنترا .

والكتابان قد مضى على طبعهما أكثر من مائة سنة .

● كما نشرت هذه المكتبة كتاب « خلاصة الذهب المسبوك » وهو مختصر من سير الملوك تأليف عبد الرحمن سنبط فنيتو الإربلي المتوفى سنة ٧١٧ هـ وقد عهدت « مكتبة المثنى » إلى الأستاذ مكي جاسم تحقيق الكتاب وتصحيحه ، فأصلح كثيراً مما اعتور الكتاب في طبعته الأولى التي نشرت في بيروت سنة ١٨٨٥ .

● في اليوم السادس من شهر مارس الماضي وجه الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس مجلس إدارة « دار المعارف » الدعوة إلى حضور افتتاح مكتبتها الجديدة بشارع عبد الخالق ثروت ، فكان لقاء ثقافياً رائعاً تلاقى فيه رجال الفكر من مختلف تياراته وألوانه محتفلين مع رجال هذه الدار ، لأن افتتاح مكتبة لايقل في قيمته عن افتتاح جامعة ، ومقدرين لهذه الدار جهودها الطيبة في خدمة الثقافة الرفيعة .

وقد وزع على المدعوين كتاب لطيف عنوانه « لماذا نقرأ ؟ » لطائفة من المفكرين يحمل عصارات من انطباعاتهم وخبراتهم .

وضم هذا الكتاب قصيدة وثماني مقالات ؛ فأما القصيدة فهي للأستاذ عادل الغضبان وعنوانها « الشعر والقارئ » ، وأما المقالات فهي : « زاد الشعب » للدكتور طه حسين ، و « لماذا هويت القراءة ؟ » للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ، و « القراءة فن » للدكتور حسين فوزي ، و « القراءة والثقافة » للدكتور السعيد مصطفى السعيد ، و « القراءة مبدأ حسابي » للدكتور السيد أبو النجا ، و « القراءة والرأي العام » للدكتور جمال الدين العطيفي ، و « القراءة والعلم » للدكتور إسماعيل صبري عبدالله ، ثم « متى، وكيف، ولماذا نقرأ ؟ » للأستاذ حلمي مراد .

وختم هذا الكتاب بموضوع طريف عنوانه « نادي الكتاب » يشير إلى الظاهرة التي شهدها عالم الكتاب منذ غداة الحرب العالمية الأولى ، وهي ظاهرة « أندية الكتاب » التي اتسع نشاطها بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية حتى أن مقدار ما وزع من الكتب من خلال هذه الأندية في عام ١٩٥٠ في الولايات المتحدة الأمريكية كان يمثل ٣٠٪ من إجمالي مبيعات الكتب ، وذلك أن « نادي الكتاب » يعين القارئ على انتقاء الكتاب وييسر له الحصول عليه مادياً دون أن يحقق أي ربح من هذه العملية ، لأن اختيار كتاب للقراءة يغدو اليوم مشكلة صعبة في البلدان المتقدمة حيث تنشط حركة النشر فتغمر السوق كل عام بألوف من الكتب الجديدة .

والمهمة الأساسية للنادي هي أن يختار الكتب للأعضاء المشتركين فيه ، ويرسلها بالبريد إلى حيث يقيمون ، ويقدم إليهم أحياناً مزايا أخرى منها تخفيض في الثمن .

وتحدث عن تاريخ إنشاء هذه الأندية منذ أول ناد أنشئ في ألمانيا سنة ١٩١٨ حتى انتقلت هذه الفكرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم إلى غيرها من البلدان . وقال : [وأخيراً إن سوق الكتاب في الجمهورية العربية المتحدة ما زالت أضيق بكثير مما تقتضيه النهضة الثقافية في البلاد ، ونحن بحاجة إلى ربط جماهير متزايدة بالكتاب . ولا شك إن « نادي الكتاب » يمكن أن يلعب دوراً كبيراً في هذا المجال] .

ونحن بدورنا نرجو أن تأخذ فكرة هذا النادي طريقها إلى التنفيذ في مصر .

حسن كامل الصيرفي



تيارات في المجلات والصحف

يقدمها
جمال بدران

- إن النقد والنقد الذاتي من أهم الضمانات للحرية ...
- إن الثورة ليست عملية هدم أنقاض الماضي، ولكن الثورة هي عملية بناء المستقبل « الميثاق »

مشكلات الكتاب العربي

يبدو أن الكتاب العالمي .. لا العربي وحده .. يعاني من المشكلات ما لا يمكن السكوت عنها .. لأنها مشكلات اكتسبت من الأوضاع العالمية قوة على قوة .. فوقفت تعرقل طريق نموه .. وتضيق من انتشاره : ومن هذه الأمثلة ما كتبته مجلة ...

رسالة اليونسكو ...

إذ أنها ترى للقضاء على الجوع العقلي وجوب القضاء على الحوائل بين الكتب وبين الحياة . . لكن طبيعة القراءة تتطلب قدراً من العزلة يفوق ما تتطلبه وسائل الاتصال أو أنماط التعبير الفنى الأخرى . . فهل تعتبر هذه العزلة هى هذا الحائل ؟ إن المجلة تجيب على هذا بالنفى ، وتؤكد بأنها الوسيلة التى تتيح للواحد معرفة الآخر . ما هى الحوائل الحقيقية إذن ؟

اختارت المجلة جنوب شرق آسيا وقارة إفريقيا كحقلين للبحث . . فوجدت أن تخلف طباعة الكتب فى الحقل الأول تعود إلى عوامل مختلفة . . منها نقص الورق وآلات الطباعة ، ومنها ضعف القوة الشرائية وصعوبات النقل . . كذلك يشكل ارتفاع نسبة الأمية فى المنطقة حائلا ضخماً دون انتشار المادة المقروءة ، وهذا فضلا عن أن انخفاض الدخل العام للفرد قد حد من ازدياد عدد القراء . . ثم تضيف المجلة عقبة فوق هذه العقبات . . فتجعل من تخلف الأحوال التجارية فى المنطقة سبباً هاماً يعوق استيراد ورق الطباعة والأحبار والآلات . كذلك يعتبر تخفيض الأسعار الشائع فى تلك البلاد والمنافسة غير الشريفة بين دور النشر هناك . . فيما يتعلق بالسعر المكتوب والثمن الفعلى للكتاب . . عاملا خطيراً من عوامل كساد تجارة الكتب .

أما فى الحقل الثانى . . ألا وهو إفريقيا . . فقد وجدت المجلة أن العقبة الأساسية هى قلة عدد القراء الذى لا يشجع على تقدم وسائل النشر ، ونوع الاحتياجات القومية من الكتب فى الدول النامية ، والحاجة إلى إنتاج الكتب فى لغات عديدة وربما بكتابات وخطوط متباينة ، ثم احتياج إفريقيا إلى الناشرين المدربين تدريباً جيداً . . هذا بجانب القيود التى تفرضها الحكومات على استيراد الكتب ، وغلاء أسعارها وارتفاع نفقات نقلها .

وفى الأهرام ...

واصلت الدكتورة بنت الشاطئ كتابتها عن مشكلات الكتاب العربى . . فأشارت إلى ما تزمع وزارة الثقافة إصداره من قرار يحتم استرداد ثمن الكتب والمطبوعات المصدرة إلى الخارج فى مدى سنة من تاريخ الشحن ، وعدم جواز بيعها بغير العملات الصعبة ، وتحديد ثمن بيع الطن من الكتب المصدرة بما لا يقل عما يعادل ثلاثمائة جنيه من العملة الصعبة بعد خصم العمولات والمصاريف .

وتعجبت الكاتبة متسائلة عما إذا كان مثل هذا القرار يكفى لتحقيق الهدف الاقتصادى الذى وضع من أجله . . فلا يفلت الكتاب بعدئذ من كل قيود التصدير هذه فيطبع فى بلد آخر كبيروت مثلا ! ! ثم تساءلت عن سبب إهدار الجانب الأدبى فى موضوع تصدير بضاعتنا الفكرية ، وتبدى دهشتها مطالبة بتحرير هذه البضاعة المصدرة من كل القيود مع احتمال الخسارة المالية فيها . . خصوصاً إذا ما علمنا أن من المؤلفين الكرام من يتنازل عن كل أجر مادى له فى سبيل نشر كتابه على أبعد مدى .

ثم تناولت موضوع الترجمة فى مقال آخر تحت عنوان « الفكر القومى والتيارات الوافدة » فعرضت لتعدد الجهات التى تنقل إلينا هذه التيارات فى غير ما تكافؤ فى الإمكانيات أو دون حماية للكتاب العربى المتواضع فى شكله وإخراجه . . وما ينتج عن هذا من تعرض الوجدان الشعبى إلى بلبلة وحيرة وقلق ، لا سبيل إلى اتقائها إلا بسيطرة الفكر القومى كى يتخذ لواء القيادة فى صخب هذه التيارات المتصادمة . . تلك التيارات التى لم يعد فى الإمكان تجاهلها أو الوقوف فى وجهها أو حتى صم الآذان عنها فى عصر « الترانزستور » .

ولا يسعنى إلا أن أهنئ الدكتورة بنت الشاطئ على موقفها الكريم من الكتاب العربى ، وأحب أن أقول . . لا خوف على الكتاب المتواضع الشكل والإخراج إذا ما ارتفع مستوى مضمونه الفكرى ، وأظن أن الطبعات الشعبية للكتب الشهيرة فى العالم أجمع تلقى رواجاً لا نظير له . . لكن كلمة الرواج هنا لا يفهم منها كمية التوزيع العددى وسرعته ، بل تكرار طبعات الكتاب الواحد على مر السنين هو الذى يصبغ عليه صفة الرواج . . ومع ذلك فان هذه الطبعات الشعبية تتطلب رصيداً من الورق وطاقة طباعية وقدرة مالية مع كفاءة إعلانية تمهد لها الطريق إلى القراء . . إلا أن هذه المتطلبات تخضع لاختلاف النظم والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى العالم العربى ، ومن ثم فان كل جهاز ثقافى فى هذه الأقطار لا بد وأن يقوم بخدمة قضاياه الخاصة . . فكيف السبيل إلى إفساح المحال للكتاب العربى كى يشق طريقه إلى دروب العالم العربى ؟ . . كيف يكون كتاباً للجميع — على حد تعبير الدكتورة بنت الشاطئ ؟ — إن هذا الأمر منوط بالإدارة الثقافية للجامعة العربية . . فهل فى مقدورها القيام بهذه المهام ؟

إننا لو أردنا الإجابة من تقارير أعمال الأمانة العامة نفسها . . لوجدناها تقول « وقد بحثت اللجنة الثقافية فى هذه الدورة عدة موضوعات هامة ، منها مشروعات الأمانة العامة الثقافية فى عام ١٩٥٧ ، الخاصة بالتأليف والترجمة والنشر وتأسيس مركز لتسجيل المطبوعات العربية . . وتعليم اللغات الأجنبية وآدابها فى المعاهد العربية » :

فما هى هذه المشروعات الهامة فى عام ١٩٥٧ ؟ . . يجيب التقرير نفسه على ذلك فيقول إنها استكمال المواد الخاصة بكتابى « الأدب العربى المعاصر » و « أصول تدريس العلوم » والتمهيد كذلك لإصدار كتاب عن « المعالم الأثرية فى البلاد العربية » ، ووضع مشروع لتأليف كتاب يقع فى خمسة أجزاء عن « جغرافية البلاد العربية » .

أما فى ميدان الترجمة . . فقد تمت مراجعة أربع عشرة مسرحية من مسرحيات شكسبير ، ولا زالت مسرحيات أخرى فى الطريق ، كذلك يجرى إتمام الجزء الثانى عشر من كتاب « قصة الحضارة » تأليف ديورانت ،

وسوف يعاد طبع الجزء الثانى من هذا الكتاب نظراً لأهمية المعلومات التاريخية الواردة فيه عن الشرق الأدنى .

فلو تساءلنا ما الذى تحقق من هذا وما الذى جد عليه وعلينا فى السنوات التالية حتى عام ١٩٦٥ .. لما وجدنا للإجابة أصلح من البحث عن هذه المطبوعات فى سوق الكتاب العربى .

موضوعات للدراسة

الحلف الاسلامى

هو موضوع الساعة على صفحات المجلات والصحف .. لأنه شديد الالتصاق بماضى الشرق وحاضره .. لكنه لا يتعداه إلى غيرهما فى الزمان والمكان .. فيقف عند حاضر الشرق لا يتخطاه إلى المستقبل أو إلى العالم .. لأنه لا يمكن أن يتفق وما تحتمه التطورات . وقد كان من أهم البحوث حول هذا الموضوع ما نشرته مجلة الاشتراكى

فتابعت هذه الفكرة ونموها تاريخياً .. منذ ظهرت فى صورة حركات انفصالية للتخلص من السيطرة العثمانية .. وكان من أبرز صورها الحركة الوهابية فى الحجاز ، فتمكنت الدولة العثمانية من إخمادها لكنها لم تقض على جذورها ، وقامت الدعوة للوحدة الإسلامية بعدئذ عندما زاد ضعف الدولة العثمانية ووضحت أطماع الاستعمار فيها ، ثم زاد اتصال الشرق بأوروبا بعد فشل الحملة الفرنسية .. فزاد اتجاه قومى دار حول الدعوة إلى إنشاء جامعة قومية وإلى الاستفادة من نهضة العرب، وكان التياران — القومى والإسلامى — مؤتلفين دون تغلب أحدهما على الآخر .. فظهرت حركة المهدى فى السودان ، ودعوة جمال الدين الأفغانى للجامعة الإسلامية ، والحركة السنوسية فى ليبيا ، وزاد التيار القومى اشتعالا بعد اتجاه تركيا إلى تتريك العرب .. لكن هزيمة الأتراك فى الحرب العالمية الأولى وتقسيم أملاكها ، ثم قيام ثورة أتاتورك وإعلانه النظام الجمهورى مع اتجاهه نحو أوروبا ، قد جمع أنصار الجامعة الإسلامية عام ١٩٢٦ فعقدوا عدة مؤتمرات كان آخرها فى القدس حيث أوصى بانشاء منظمة دولية إسلامية دائمة .. لكن المشروع صادفه الفشل ، وسيطر الاتجاه القومى بعد الحرب العالمية الثانية فتأكد بقيام الجامعة العربية ثم بظهور إسرائيل ، لكن انفصال باكستان عن الهند وظهورها كدولة إسلامية أعاد فكرة التكتل الإسلامى ، وغذت الأطماع الاستعمارية هذه الفكرة لدعم نفوذها وحماية مصالحها ، ثم ضرب الحركة القومية التى قويت بقيام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر ، ثم تطويق المعسكر الشرقى .. وكانت آخر محاولات

الاشتراكى
حرية — اشتراكية — وحدة

الاستعمار لتغذية هذه الفكرة تكوين حلف بغداد الذى ضم باكستان ، وضم إيران ، بل وضم تركيا نفسها . . حتى قامت ثورة العراق فتحطم الحلف .

من هذه السطور التاريخية ندرك حقيقة الهدف التى تسعى إليه إيران من مناداتها بتأليف الحلف الجديد ، وهى أبعد الدول عن حقيقة الإسلام أو اتباع تعاليمه ، وهى أقرب الدول الشرقية ألفة مع إسرائيل ، وهى ألصق الدول الشرقية وأكثرها طواعية لسياسة الغرب وأحلافه ، وهى أيضاً صاحبة الأطماع الشهيرة فى إمارات الخليج العربى .

لقد تناول الكاتب اللبنانى بلال الحسن هذا الموضوع بعد زيارة الملك فيصل المفاجئة لإيران ، وما نجم عنها من خطوات تستهدف تأليف الحلف الإسلامى . . ويضم دول حلف بغداد السابق مع دول أخرى فى المنطقة . . كتب فى مجلة الحرية

الحرية

يقول : « لا بد أن يعنى فى مؤداه النهائى الأمور الخطيرة التالية : تسهيل مخطط إيران من خلال سياسة التهجير التى تمارسها فى الخليج العربى إلى الاستيلاء على مناطقه ، تجميع الدول ذوات النظم المتشابهة لشن حرب باردة على النظم الاشتراكية فى الدول العربية الأخرى كى تعطل فاعليتها وانطلاقها . . فتضمن استمرار نظمها ، محاصرة التيار التحررى بمساعدة من الغرب وبالتخفى وراء « القيم الروحية » المزعومة . . ولن تتحقق من الغرب مساندة إلا إذا ما تناسقت مع سياستها تجاه إسرائيل بطبيعة الحال ، استغلال الدين كعنصر أساسى لمقاومة الاتجاه الاشتراكى » .

فهل تلقى هذه المزاعم قبولا لدى العقول العربية . . هل يتعارض الدين مع الاشتراكية ؟ لقد أجاب سامى داود بعدة تساؤلات بديهية . . تدحض هذا الادعاء . . فكتب فى الجمهورية

الجمهورية

يقول : هل يوافق الدين على الاستغلال ؟ هل يعترض الدين على زيادة الإنتاج ؟ ، هل يكره الدين إقامة العدل ؟ . . أين التناقض إذن ! ! إن من يرددون هذه المزاعم لا يقصدون إلا حرمان الدين من جهد الإنسان .. إن الاشتراكيين فى حقيقتهم ليسوا سوى حراس المبادئ التى جاءت بها الأديان .

وقد حسم بيان فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الأمر بأن أكد فى جريدة الأهرام . . أن فكرة الاحتيال على الإسلام تاريخها قديم منذ عهد الرسول ، وما شرع الله الإسلام إلا لبرد الطغاة المستبدين والمستغلين إلى مكانهم فى صف البشر ، وما الحلف المزعوم هذا إلا مثل مسجد ضرار الذى أقامه المنافقون فى عهد رسول الله للاحتيال على المسلمين وتضليلهم لتفرقتهم من حول النبى . . فقال عنهم القرآن الكريم « لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » .

يبدو أن الانقلاب الذى حدث فى غانا وما صاحبه من تصريحات طائشة لبعض من قاموا به قد كشف عن حقيقة المؤامرات الخفية التى تدبر أمرها ، بل كشف عن الأصابع التى تواصل العبث بمقدرات الشعوب النامية فى أفريقيا . فهل يعتبر هذا الانقلاب آخر صورة أو آخر محاولة فى هذه القارة ؟ إن النجاح هنا لا يمكن أن يكون خاتمة لكل هذه الانقلابات ، بل يصبح مشجعاً على القيام بغيره . . فقد كان نجاح الانقلاب فى الكنغو مشجعاً ومسانداً لانقلاب نيجيريا ، وأدى هذا بدوره إلى نجاح انقلاب داهومى الذى ساعد جيش أفريقيا الوسطى فى القيام بالاستيلاء على الحكم بعد تسعة أيام فقط ، بل إن فولتا العليا قد حدث فيها انقلاب بعد نجاحه فى فولتا العليا بخمسة أيام . . ونلاحظ أن الشكل الذى حدثت به هذه الانقلابات جميعها واحد لم يتغير .

فما تفسير ذلك ؟ . . إننا نجد إجابة لهذا التساؤل فى مجلة روزا اليوسف

فيقول محمود دهنى : « تخشى القوى الاستعمارية الثورة الوطنية التى يمهد لها الفساد والنزاع الشخصى والتبعية فتسرع على الفور إلى الثورة المضادة » ، ويؤكد الكاتب قائلا « سيظل هذا الاتجاه موجوداً ما دامت هناك فى أفريقيا عواصم تبحث عن نضجها السياسى وما تزال فى فترة الغليان . . إن معظم النظم الموجودة فى غرب أفريقيا لا تعبر حتى هذه اللحظة عن الوضع الإفريقى ،وستظل فى غليانها حتى تجد بالفعل النظام الذى يعبر عن حقيقتها وحقيقة أفريقيا الجديدة » .

لكن هذا التفسير لا ينطبق على ما حدث فى غانا تماماً . . ذلك لأن نظام الحكم فيها قد بدأ فى تحقيق إنجازات وطنية متحررة ، بل كان يفهم طبيعة الوضع الإفريقى حقاً ، وحاول أن يتحرك ويحرك جاراته من الدول حديثة الاستقلال نحو هذا الوضع الطبيعى . . الأمر الذى يؤرق جانب المستعمر فى مضاجعه المتناثرة . . وهنا بيت القصيد . . لا بد للمستعمر من قفزة ، لا بد من سباق . . وحدث ما حدث فى غانا . . فهل يعتبر هذا فاتحة لمحاولات أخرى على هذا المستوى ؟ . . هل يتدخل المستعمر القديم ليواصل انقلاباته كما يحدث فى أمريكا اللاتينية ؟ .. إن هناك مبدأ منرو واحداً ، أما هنا فقد تزاحمت مبادئ حمايات وقلقلات السادة الأقوياء .

وقد كتب أحمد بهاء الدين محدداً المعايير التي نستطيع بها الحكم على حقيقة الثورة ، وما الفرق بين الثورات والانقلابات . . فكتب في مجلة المصور يقول . . لا بد أن نضع لأنفسنا معايير بسيطة تجعلنا أنفذ بصراً من الوقوف عند المظهر المتشابه . . فالثورة – بمعناها العام – تقع عادة حين تحدث تطور اجتماعي يجعل الناس يطالبون بأشياء لا تتسع لها حدود النظام القائم . . لكن ليس كل انفجار ثورة ، وليس كل اسقاط لحكومة قائمة ثورة . . فالمعيار الوحيد الذي يمكن الأخذ به للتفرقة بين الثورة والثورة المضادة أو ما كان يسمى بـ « ثورات القصور » . . هو المعيار الاجتماعي . . أي ببساطة هو أثر الحدث في حياة الناس . . وعلى هذا فان الانقلاب إن دل على شيء فانما يدل على مرض معين يجب البرء منه ، كالطائفية أو العنصرية أو ضعف المؤسسات الشعبية أو وجود الفراغ السياسي . . أما الثورة المضادة فهي التي لا تعطي لمجموع الناس كلمة أكبر في تسيير أمورهم ، وحقاً أكبر في ثروة بلادهم وعائد عملهم ، وحظاً أكبر من المساواة وتكافؤ الفرصة .

وليس معنى هذا أن أي حكم ثوري جاءت به ثورة حقيقية قد برأ من الأخطاء ، فهو عادة يتسلم المسئولية في أعقاب تخلف طويل ، ويتوقع الناس منه مكاسب عاجلة وربما ساذجة ، وقد يكون أفراده تنقصهم خبرة الحكم الطويل التي تمرس بها رجال النظام الساقط القديم . . وما علاج هذا إلا بالنمو والتدرب والتمرس من داخل النظام الثوري ، محافظة على مكاسبه الأساسية التي تجيء الثورة المضادة عادة لتقضي عليها .

القادة في مجتمعنا الاشتراكي

إن طبيعة المرحلة البنائية التي يمر بها مجتمعنا الآن . . تتطلب وعياً جماهيرياً وتفهماً للدور البطولي الذي لا بد أن يؤديه هذا المجتمع . . لكن عملية التوعية والتنوير بما فرض فيها من شروط وضرورات . . قد ارتبطت بمن يتصدر لحمل رسالتها . . ومن ثم كانت هذه المهمة تفترض فيمن تصدى لها أن يكون على مستوى مسئوليتها . . تلك المسئولية المتشعبة الاتجاهات ، والتي لا تخرج عن ثلاثة أبعاد . . اجتماعية وسياسية وإدارية . . فهل عثر مجتمعنا الاشتراكي على قادة من هذا النوع ؟

إن لطفي الخولي يعالج هذه المشكلة في الطليعة

فيعتبر أن الصعوبة مركزة في التوعية نفسها .. لأنها مزدوجة .. فهي «لا تستهدف فحسب تعميق القيم الاشتراكية وبناء نظمها في المجتمع ، وإنما في نفس الوقت الكشف عن بقايا النظم الرأسمالية ورواسب علاقاتها وقيمها وجيوبها الاجتماعية ومحاربتها وتصفيتها» . . إنها تتطلب جهداً مضاعفاً **لأن العقائديات البرجوازية من حيث نشأتها ونفاذها إلى عقول ومشاعر وسلوك الجماهير ، أقدم بكثير من العقائدية الاشتراكية . . إنها تواجه فراغاً**

خطيراً يجب عليها أن تملأه بكادر اشتراكى بأساليب وطرق ذات معدل للسرعة غير عادى . . إنها تواجه فى مجالات وحدات الإنتاج وضعاً شاذاً . . فعلى قمة إدارة عدد غير قليل من هذه الوحدات مسئولون غير اشتراكيين ، ولكن عملية الإنتاج فى نفس الوقت فى حاجة ماسة إليهم ، وبالتالى فان عليها أن تبتكر وتستنبط طرقاً وأساليب خاصة ومجدية معاً فى إعادة تربيتهم سياسياً وفى كسبهم لقضية الاشتراكية عملياً على الأقل . . وأخيراً . . فالتوعية الاشتراكية لا بد وأن تحدث داخل مجتمعنا الذى بلغت فيه نسبة الأمية من مجموع الشعب ٧٠،٦ . . لكن عامل الأمية فى الإمكان تحويله من السلبية إلى الإيجابية لمحوها بتعليم القراءات الاشتراكية . . فماذا تكون هذه القراءات ؟

إن محاولة جادة فى هذا السبيل تظهر فى أعداد متوالية من مجلة الهلال . . فتنشر موسوعة الجيب الاشتراكية ، وتقدم فيها كل ما يجب معرفته عن الاشتراكية وعن أعلامها وعن قضاياها ومشكلاتها وعن تطبيقاتها وتعددها فى مختلف جهات العالم . . وها أنا أقرأ فى الجزء الثالث من الموسوعة عن دراجوفيتش ، ديكلو ، دى مان ، ديمتروف ، برودون ، باكونين ، تروتسكى ، ماركس ، انجلز ، ماوتسى تونج ، وعن راباسكى وراماديه ورانكوفتش وريكاردو . . الخ . . فخطر بذهنى — أنا القارئ العادى — هذا السؤال . . ما الهدف من تقديم هذه الموسوعة ؟ ويبدو أن هذا الاستفسار كان نتيجة لانطباعة ذاتية دفعتنى إلى معرفة مدى استيعابى لما قرأت . . لكننى أدركت ضآلتى بجانب الجمهور العريض الذى سيقرأ ما فيها . . لذلك فاننى أرجح أن الهدف هو توسيع القاعدة الواعية بالاشتراكية . . عن طريق تثقيفها بالفكر الاشتراكى ، إلا أن الحاجة أكثر الحاحاً لتقديم قاموس اشتراكى سابق على هذه الموسوعة . . قاموس يعلم الأبجدية . . ألف باء الاشتراكية بين الـ ٧٠،٦ ، إن الجزء الثالث من الموسوعة فيه سلاح نقدمه للمتخرصين الهامسين بعدم أصالة الاشتراكية العربية . . ولن نفقدهم فاعلية هذا السلاح إلا بتقديم ألف باء الاشتراكية العربية . . فهل نتفادى هذا السلاح ونتداركه فى الأجزاء التالية ؟ . . أرجو هذا . . لكن معترضاً قد يشفق متسائلا . . وكيف السبيل ؟ . . إن الرد بكل اطمئنان وثقة يتمثل فى فهم طبيعة المرحلة البنائية التى نمر بها وفهم ما يقابلها من مشاكل التطبيق . . إن مشاكل التطبيق التى تجابهنا لأول مرة فى هذه المرحلة تحتم علينا أن نبدأ من ألف باء . . وليس معنى هذا أن الاشتراكية تصبح مستحدثة لا سند لها من تراثنا أو تقاليدنا ، وإنما الجديد هو ما طرأ علينا من ثورة صناعية لم تمر بها **مجتمعاتنا العربية من قبل . . ومن ثم نصبح أكثر حاجة للتزود بالأمثلة المشابهة ، وبكل ما قابلها من صعوبات ونجاح ، وبكل ما تطلبته من تضحيات ، وبكل**

ما اختطته من مناهج عملية لا نظرية . . فاذا ما احتجنا إلى سوق دراجوفيتش كمثال . . لن يهمنا منه إلا الجانب الفعالى . . كيفية معالجته لمشكلة الطبقية فى الحركة العمالية الاشتراكية فى صربيا مثلا ، ثم نجرى المقارنة بين دوره كصانع أثاث فى زغرب ودوره كرئيس لتحرير صحف « التقدم » ، والأخبار العمالية ، والجريدة العمالية القديمة » . فمن ذا الذى يقوم بهذه المهمة ما لم يكن على مستوى مسئولياتها ؟ إن مجلة روزا اليوسف . .

قد أفردت لهذا الموضوع خمسة أعداد متوالية .. فيقول الدكتور شريف حتاته . . إن هذا هو دور القائد إذا حسن اختياره ، وإن « الأسلوب السليم الوحيد هو الجمع بين الاختيار من أعلى ومن أسفل ، على أن تترك الكلمة الأخيرة فى المرحلة الحالية للأجهزة العليا فى الدولة وفى الجهاز الإدارى » ثم أجمل الشروط التى يجب أن يختار على أساسها القائد فى الممارسة العملية أثناء معارك البناء الاشتراكى خصوصاً أنه سيكون نابعاً من نفس الحقل أو المصنع .

تنظيم الأسرة

تناولت أغلب المجلات والصحف مسألة التزايد السكانى أو الانفجار السكانى بالبحث والتحليل . . وحاولت كل واحدة منها أن تتوصل إلى علاج لهذه المشكلة . . لكن السمة التى غلبت عليها كلها هى النتائج الاقتصادية لها ، وما يستتبع ذلك من زيادة فى الاستهلاك وتهديد للتنمية . . لكن واحدة منها لم تحاول أن تطرق الجانب الاجتماعى من المشكلة ، وما يحكم مجتمعنا من عادات وتقاليد . . تقف حجر عثرة فى طريق تنظيم هذه الظاهرة . . كذلك لم تحاول إحداها أن تبرز دور العقائد الدينية فى علاج هذا الأمر ، بل أكثر من ذلك يدعو أستاذ الشريعة فى كلية حقوق جامعة القاهرة إلى زيادة النسل ويلح فى ذلك . . ولم يجد أحمد حمروش فى الرد عليه غير الدهشة واللوم ثم الاستنجاد بمدير الجامعة ووزير التعليم العالى لوقف الأستاذ عند حده . . . وها هو محمد التابعى يقول فى أخبار اليوم . .

« إن الطعام الموجود فى العالم يكفيه . . وفى أعماق البحار ملايين وملايين الأطنان من مختلف أنواع الأسماك كما أن فيه أعشاباً لها قيمة غذائية كبيرة كما أثبت العلم الحديث » ويخرج بنتيجة بعد حديثه عن مصر هى أن العيب لدينا هو أننا شعب أكول فيقول « كذلك لا أعرف شعباً من الشعوب يفطر الفرد فيه على ثمانى أو عشر بيضات مقلية أو مسلوقة مع طبق مملوء بالفول المدمس وقطعة كبيرة من الجبن ! ! وهذا فى بيوت أعيان الريف وأثريائه . وإذا لم يكن هذا هو النهم فلا أدرى ماذا يكون ! ! » .

ولا يسعنى إلا أن أسعد لهذه الكلمات وأطمئن . . أسعد لأن الأعيان فى الريف قد زادوا واتسعت قاعدتهم لفلاحين جدد لدرجة أن نهمهم يسبب ضيقاً

للمرفهين فى المدن ، وأطمئن أيضاً لأن النهم مهما بلغ فإن الطعام الموجود فى العالم يكفى ويفيض . لكن الحيرة ما تلبث أن تطغى على سعادتى واطمئنانى عندما قرأت مجلة المختار . .

تحت عنوان « مشكلة العالم رقم ١ » ، ما يؤكد « إن مجرد الاحتفاظ بمستوى الطعام الحالى — غير الكافى — للعالم ، سوف يتطلب مضاعفة إنتاج العالم من الطعام قبل عام ٢٠٠٠ ، على الرغم من أن كل الأراضى العذراء فى العالم قد أستخدمت فعلا فى الإنتاج » .. ومن ثم فلا مفر من العمل الآخر الذى يؤيده الدكتور إيرل باتز بشدة .. ألا وهو « تخفيض معدل المواليد العالمى » .

فهل يرضى مجتمعنا بهذا الحل ؟ . . هل آن للرجل الشرقى أن يغير مفهوم الرجولة أنها القدرة على الإنجاب ، وتغير الزوجة الشرقية مفهوم صلاحيتها المتمثل فى مداومة الإخصاب ! ! هل آن لنا أن ندرك الحكمة الإلهية الكامنة فى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

فمن الذى يقوم بهذه التوعية ؟ إن مجلة روز اليوسف . . تجيب على ذلك . . فتقول « إن هذا يتطلب عملا جماهيرياً منظماً ومستمراً ، وتوعية يومية فى مجال العمل أو السكن لملايين النساء والرجال فى القرى والمدن . . وعلى الاتحاد الاشتراكى أن يقوم بهذه المهمة المعقدة التى يتوقف عليها إلى حد كبير مدى نجاحنا فى تحقيق أهداف الخطة الخمسية الثانية » .

العامية والالتزام

طالب وزير الثقافة أعضاء المجمع اللغوى بأن يعطوا اهتماماً أكثر للعامية ، ثم أردف قائلا « ليس المطلوب أن ننخفض بالفصحى إلى مستوى العامية وإنما المنتظر أن نرتفع بالعامية إلى مستوى الفصحى » :

إن الشاعر عزيز أباظه هو الذى بدأ ينفخ الرماد يوم عيد العلم وفوزه فيه بجائزة الدولة التقديرية . . وأراد أن يعلنها حرباً عواناً على العامية دفاعاً عن الفصحى وحماية لها . . لكنها حرب على مستوى الدولة تلك المرة كما أراد . . ونتج عن هذا أن فهم البعض مفهومات متضاربة دارت كلها حول احتضان السلطة للفصحى وانتشار العامية بين أفواه المجتمع . . الأمر الذى يوحى بوجود عازل أو فاصل بين السلطة وبين المجتمع . . وهذا مما لا يتفق وأبسط الحقائق الاجتماعية ، التى جعلت وزير الثقافة يوجه هذا النداء بعدئذ .

فهل نعتبره إلزاماً لحضرات أعضاء المجمع اللغوى ، أم لا بد أن نفرق بين الإلزام والالتزام كما ينصح الدكتور طه حسين ! ! أخشى إن أخذنا بهذه التفرقة أن نعود ثانية إلى العازل أو الفاصل بين السلطة وبين المجتمع . . وكأننا ما انتقلنا قط إلى اشتراكية الدولة . . إذ ليس بلازم أن يأتى الإلزام من السلطة وحدها ، وإنما قد ينبع — وهكذا تؤكد الحقيقة العلمية — من



المجتمع ذاته . . فتلزم أفراده وتلزم السلطة القائمة عليهم ، بل إن الإلزام المفروض من السلطة على المجتمع إن لم يكن معبراً عن ضرورة اجتماعية ومتفقاً معها لا يمكن أن يستمر ويستحيل بقاؤه .

فاذا وضعنا نصب أعيننا هذا الاعتبار . . وهو أن اللغة ظاهرة اجتماعية ملزمة ، وهي فى نفس الوقت تلقائية نابعة من مجتمعنا . . لوجدنا أن كل مفكر ملتزم – من داخله وخارجه إن صح هذا التعبير . . فهل نفرق بعدئذ بين الفصحى وبين العامية ؟ . . لقد عقد بعض الأدباء المهتمين بهذه المشكلة ندوة نشرت تفاصيلها جريدة الجمهورية . .

فاختلف المجتمعون حول اعتبار العامية لغة أم لهجة ، ثم اختلفوا حول وجود عداء بين الفصحى والعامية ، كذلك اختلفوا حول إمكان استعمال النوعين فى عمل فنى واحد أم لا بد من لغة فنية ، وفى النهاية طالب بعضهم بأن يعمل المثقفون على مساعدة التطور الطبيعى للغة للتقارب بين الطرفين والخلق لغة ثالثة .

فهل هذا هو القرار النهائى ؟ هل اعتبر علاج مشكلة ازدواج التعبير بين الفصحى والعامية مشكلة هينة بهذه الدرجة ! ! وهل استطعنا التغلب على هذا الازدواج حتى نزيد الطين بلة فنبحث عن لغة ثالثة ! ! ما هى لغة العمل التى قال عنها بعض أعضاء الندوة ، وما هو نوع العمل اللغوى ! ! التفوه بها دون كتابتها ، أم أن العكس هو الصحيح ! !

إن العامية انبعثت من التحريف فى النطق ، والنطق يعتمد كلية على الأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها . . وتلك الأمور بعينها هى التى تميز بين كل لهجة وأخرى مع قليل من صفات ترجع إلى بنية الكلمة ونسجها أو إلى معانى بعض كلماتها . . ومن ثم فان العامية لهجة وليست لغة .

وآخر تعريف علمى للهجة هو أنها « مجموعة من الصفات اللغوية المنتمية إلى بيئة خاصة يأخذ بها أفرادها كافة ، لكنها جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات تشترك جميعاً فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر الفهم بين أهل هذه البيئات فى حدود الرابطة القائمة بين لهجاتهم .

فمن البديهى أن تكون اللهجة فرعاً من اللغة ، ومن ثم تصبح العامية فرعاً من الفصحى ، فهل نترك الأصل ونتعلق بالفرع ! ! وأى عامية نعتنى بها . . أهى عامية السواحل ! ! أم عامية الشرقية والدقهلية ! ! أم عامية الصعيد ! ! أخشى أن ينصرف الكلام على عامية القاهرة . .

يزعم البعض أن العامية أسهل انتشاراً لأنها وسيلة التداول والمعاملات وأن مرونتها هى التى تفسح لها الطريق . . لكن الحقيقة هى أن الأمية المتفشية هى التى تلجئ الناس إلى التفاهم بشتى السبل حتى ولو كانت بتشويه ألفاظ اللغة . . هذا فضلا عن استخدام الإشارات . . فهل نستسلم إلى الأمية ! ! أم نعود إلى بدائية الإشارات ! ! هل ننكمش فى لهجة ! ! أم نتفتت إلى لهجات ! ! هنا يأتى دور الالتزام . . الالتزام بمحو الأمية . . الالتزام بالدراسة الجادة لفهم اللغة العربية وطواعيتها . . الالتزام باشتراكية الثقافة حتى يتحقق التقدم ، وحتى نضمن السير قدماً فى طريق القومية العربية ه

القصة والمسرح والنقد

القصـــة :.

ما زالت القصة بين المجلات والصحف تجاهد فى إفساح صفحة أو مساحة من صفحة لها ، ولا زال نقد القصة ينعى حظ توقفه عن العمل لنضوب المادة وانكماش مجالها ، وقد يهون أثر هذه الظاهرة المقلقة إذا ما سدت الكتب المتخصصة هذه الفجوة . . لكن حصيلة هذا الشهر من كتب القصص قد انحصرت فى أربعة هى « ثرثرة على النيل » التى سبق نشرها على صفحات جريدة الأهرام ، « الغبى » لفتحى غانم ، « وتلك الرائحة » لصنع الله إبراهيم و « الخروج من التابوت » لمصطفى محمود . . أما كتب النقد فلم يكن لها نصيب . وقد نشرت مجلة

الكاتب

ملاحظات لنجيب محفوظ على نقد أحمد عباس صالح له ، ورد الأخير عليه . . يتساءل نجيب محفوظ متعجباً عن ماهية النظرة الاشتراكية للعلم ، وعن حق الفن فى البحث عن الأسرار الكونية ، وعن وضع الشخصية الثورية فى رواياته ، وعن مركز العلم وسيطرته فى زماننا ! !

لكن الناقد يرد عليه مؤكداً تمجيد الاشتراكية للعلم ، لكنه العلم المتفاعل مع المجتمع ككل وخادم له كبناء شامل ، لكن العلم بكل انتصاراته التى تستهدف الخير للإنسان . لا يدخل فى نطاقه وليس فى قدرته توجيه الأخلاق . . لأن هذه لا تصنعها المخترعات ، وإنما بالفكر والفن أو بالفن وحده تنمو القيم ، لكن الفن قد أجمعت نظرياته على أنه تعبير إنسانى وليس بحثاً عقلياً أو معمليا . كما نرى عند بنديتو كروتشه نفسه ، أما عن الشخصية الثورية فى روايات نجيب محفوظ ورسمها المسطح المعيب ، فلا يمكن قبول تبريره بأنها شخصية ثانوية تدور حول شخصية رئيسية تستلزم الضرورة الفنية أن تكون مسطحة خدمة أو تعميقاً للشخصية الرئيسية . . لأن أصول الفن تستوجب أن تدب الحياة فى شخصيات الرواية كلها . . ثانوية كانت أو رئيسية .

لكن محمود أمين العالم يمسك بأول الخيط ليقدم لنا أزمة نجيب محفوظ فيقول فى المصور . .

إن سؤال نجيب محفوظ للدكتور طه حسين عن الرواية الفلسفية يعبر عما يكمن فى نفس أديبنا الروائى من حيرة وأزمة أساسهما الشك فى استطاعة الرواية الفلسفية بمعناها الخاص أن تعبر عن تجاربنا الجديدة ، والشك فى صلاحيتها كوسيلة للتعبير عن هذه التجارب المباشرة التى تتناقض مع الطابع التجريدى للرواية الفلسفية . . والأزمة هنا تتركز فى اكتشاف للموضوع

الجديد الذى يجمع بين القضية العامة والقضية الخاصة فى صيغة أدبية وفلسفية واحدة . فالأدب فى مرحلة تحولنا الاجتماعى هذه يبحث لنفسه عن صيغة جديدة تجمع بين التحليق فى سماء الإبداع والفكر ،وبين التعمق فى الأرض والإنسان والمجتمع فى وقت واحد .

وأظن أن أصدق تطبيق لهذه المرحلة التحولية فى مجال القصة ما قرأته فى جريدة الجمهورية . .

فقد نشرت قصة بعنوان « المكنة » لشكرى محمد عياد . . وها هو يقول على لسان كامل – العامل – والذى يطلق عليه لقب الباشمهندس ، يقول مخاطباً المعلم بسيونى « بقول لك دى تيجى على أهون سبب يا معلم . . بس لو كان بنى آدم زى المكنة كنا عرفنا السر إيه . . إلا بنى آدم شىء تانى » ، وها هو المؤلف نفسه يتحدث عن سامى . . الشاب خريج الجامعة ، وابن المعلم بسيونى من زوجة ذات عائلة محترمة تنازلت وقبلت زواجه بها ، يرسم المؤلف شخصية هذا الشاب الضعيف الهمة من أول يوم لزواجه بفتحية ابنة المعلم حمدالله . . فيقول « اعرف نفسك ، أى مهمة ثقيلة . نفسه أم الدنيا كلها أم لعلهما شىء واحد ؟ لم يعد يؤلمه العجز ، بل كادت الكلمة تفقد معناها . . المشكلة هى مشكلة الإرادة » .

وها نحن نرى المؤلف يحاول أن يفلسف القصة على لسان الشاب المريض فى النهاية « لا شك أن الخلاص من عقدك لا يعطيك إلا قدراً ضئيلا من الحرية . . حرية المشى فى قيودك . . وأنت تعرف هذا كما أعرفه ولكنك تحاول أن تفكر فيه »

ويتضح من هذه القصة مدى الجهد المبذول فى البحث عن هذه الصيغة الجديدة التى تناسب تحولنا الاجتماعى . . لا فى الرواية الفلسفية فحسب ، وإنما فى القصة القصيرة أيضاً .

والمسرح . .

انتهى موكب مسرحيتى الفتى مهران واتفرج يا سلام فى الشهر الماضى ، وانتهت معه زوبعة النقد التى ثارت على صفحات المجلات والصحف . . وكان السؤال الذى وقفنا عنده هو هل نحاسب المؤلف المسرحى على أساس منهجه الذى اختطه لنفسه فى تأليف المسرحية أم لا . . وقبل أن يتعجل أحد الإجابة يقتضى الأمر أن نستفسر أولا هل هذا المنهج مقبول لصحته الفنية أم لنجاحه الجماهيرى . . وهنا قد نستطيع الإجابة من موسم المسرح فى الشهر الماضى فقط . . ثلاث مسرحيات فقط هى التى شغلت النقاد . . إحداها مكتوبة ولم تقف بعد على خشبة المسرح « مأساة الحلاج » لصلاح عبد الصبور ، وثانيتها تسللت إلى المسرح فى غربة لم يدركها أحد « ملك عجوز » لشوقى عبد الحكيم ، وأخراها هلت بعاصفة هوجاء من الترحيب ما لبثت أن خبت فأسفرت عن همسات من النقد المرير . . « المهزلة الأرضية» ليوسف إدريس .

فها هو صلاح عبد الصبور يحدد مفهومه عن المسرح الشعرى فيقول فى جريدة الأهرام . .

المسرحية المنظومة هى العمل الفنى الذى يجرى كل حواره منظوماً بطريقة عروضية سليمة ، أما الدراما الشاعرية فهى العمل الدرامى الذى تتغلغل روح الشعر فى ثناياه وإن خلت من الإيقاع العروضى المحكم . . ولعل وجود هاتين التسميتين أن يكون دليلا على أن المسرح هو الهدف الأول ، وليس الشعر منظوماً ومطلقاً وحراً إلا وسيلة من وسائل التعبير .

أما الدراما — فهى فى جوهرها — عمل فنى يعتمد على الحوار ، ويتقدم به الممثلون ، ويوهم المتفرج أنه قطعة صادقة من الحياة ، وفى عملية الإيهام هذه يكمن السر الكبير . فلكى يتم الإيهام ينبغى أولا أن يحرص المؤلف المسرحى على تمثيل العصر الذى وقعت فيه أحداث مسرحيته .

ثم يطبق صلاح عبد الصبور هذا المفهوم ناقداً به مسرحية الفتى مهران فيقول : ليس الشعر فى المسرح حلية تزين بها المسرحية ، وإنما هو قوام المسرحية وروحها . . فالناس لا تتحدث بالشعر إلا فى اللحظات المكثفة التى تزدحم فيها العواطف وتشتد الانفعالات . لذلك فان المسرحية الشعرية تحرص على نقاء اللغة حرصاً بالغاً ، ولا بد أن تكتب المسرحية بلغة إنسانية عامة مع ذر بضعة ألفاظ وعبارات هنا وهناك تنشر روح العصر ونبضه .

لكننا نجد المؤلف هنا قد خرج عما أفصح عنه من منهج . . عندما قدم لنا مأساة الحلاج . . وها هو محمود العالم ينفى وجود مأساة فيها . . فيقول فى مجلة المصور . .

« أقول الحق إننى لم أحس هذا الجوهر الدرامى فى نفس الحلاج فى هذه المسرحية وإنما أحسست به بحوار فكرى خالص » . ثم يستطرد قائلا : « وفى هذه المسرحية يصفو الشعر ويعمق ويتركز لدرجة بالغة الرفعة والعذوبة . حقاً أنه يكاد يخرج عن حدود التعبير الدرامى إلى حدود التعبير الغنائى الخالص بل نكاد نجد فى صفحات من المسرحية ، قصائد قائمة بذاتها على لسان الشبلى أو الحلاج ، بل قد نجد بعض الحوار الذى هو حوار من حيث الشكل ولكنه فى الحقيقة مقطع شعرى موزع بين بعض الأشخاص » .

أما صاحب « المهزلة الأرضية » ففنان قلق دائماً ، يلهث باستمرار بحثاً وراء مسرح مصرى جديد . . فيقدم كل مسرحية له بشكل ثورى جديد . . أى أن يوسف إدريس يؤمن بمبدأ الحرية فى الإيهام المسرحى . . وها هو يعبر

آراءه على صفحات الجمهورية . . فيقول فى اقتضاب « الفن ليس مجرد انعكاس للواقع ، ولا هو خيال محض ، ولكنه عالم ثالث حقيقى » ويقول « فى الفن لا يوجد شكل ولا مضمون ، إن الشكل مضمون فنى ، والمضمون شكل فنى » .

لكن أحمد عبد المعطى حجازى قد حار فى فهم ما هو جديد فى المسرحية فكتب فى روز اليوسف . .

يقول . . إن المسرحية تبدأ بداية واقعية جداً ، وتدور حول الصراع الدائم بين من يعيشون فى الواقع كما هو وبين من يبحثون عن عالم أفضل . لكن المسرحية قد ازدحمت بأفكار ورموز كثيرة عاقت الصراع الرئيسى أن يتحدد ويتبلور . . وما ذلك إلا لأن المؤلف قد طمح إلى أن يعبر فى المسرحية الواحدة عن كل مشاكلنا الروحية بكل جوانبها . . الواقع والمثال ، الحب المفقود والأوهام المشتركة والأوهام الخاصة ، الميراث السئ والطموح إلى تغيير المجتمع . . هذه الأنواع كلها من الصراعات سردها يوسف إدريس سرداً تاريخياً دون عناء البحث عن حل . . وهذا هو الشىء المتكرر عند الكاتب وغيره من كتاب المسرح فى مصر .

أما أحمد بهجت فتناول المسرحية منذ ولادتها مؤكداً أنها قصة يوسف إدريس نفسه القصيرة بعنوان « فوق حدود العقل » المنشورة عام ١٩٦١ . . فكتب فى جريدة الأهرام . . مزيداً أنها طبعت أخيراً فى كتابه « لغة الآى آى » وتحولت هذه القصة إلى بناء مسرحى . . جيد فى البداية ، منتهياً بعد البداية مباشرة . . مما أدى إلى انتهاء القصة مع انتهاء الفصل الأول من المسرحية . . أما الفصلان الآخران فلم يخرجا عن كونهما خطباً تحشو المحاكمات المملة . . التى أدت إلى الجمود . . « ومن هنا أفلت الموقف من يد الكاتب » لأن الكلمة فى المسرح تعنى الفعل ، ولأن الكاتب يلجأ إلى أسلوبين . . الإيحاء المستتر والتصريحات الخطابية . . وهذا ليس حلا فى الفن ، ولأن الكاتب يعتنق فى مسرحيته كل وجهات نظر اليمين واليسار والوسط . . وهذا ما لا تلتزم به الاشتراكية . . ثم يختم الناقد رأيه مؤكداً أنه لولا مواهب الممثلين لغرق النص بكل الخطب التى تملؤه كأكياس الرمل . .

فماذا بوسعنا أن نستنتج . . إن اللحظة الملهمة للفنان يبدع فيها متخلصاً من قيود المنهج أو الشكل . . هى التى تقف فى طريق محاسبة الفنان إذ أنه مهما صرح وحدد بعد لحظة إبداعه . . فهو فى تصريحه وتحديده بعيد عن المرحلة التى عانى فيها اندماجه الفنى المنطلق . . التى لا يشعر فيها بأى قيد منهجى أو شكلى يلزمه . . إلا شعور ضرورة التعبير عما يختزنه من انفعالات لأبناء مجتمعه . . ألا وهم القراء والنظارة . . وهذا هو الأساس الذى يمكن أن يقوم عليه نقد أو حساب .

جمال بدران

تعقيب على مقال الأدب والحياة

بقلم
فؤاد دوّاره

نشرت مجلة « الكتاب العربى » فى عددها الأخير مقالا للأستاذ أحمد محمد عطيه عن كتاب « الأدب والحياة » الذى ترجمته لمكسيم جوركى ، وراجعه الدكتور على الراعى . وأبدأ فأشكر للكاتب اهتمامه بالتعريف بالكتاب ونقده فى وقت قل فيه الاهتمام بنقد الكتب والتعريف بها ، ولكنى لا أملك مع ذلك إلا أن أنبهه إلى خطأ وقع فيه وتسبب فى كل النقد واللوم الذى وجهه إلى ، خاصة وأنى أعتقد أنه وقع فى هذا الخطأ عن حسن نية وبدافع من حماسته لأدب جوركى وضرورة مراعاة الأمانة فى النقل والترجمة ، بل إنى لألتمس له بعض العذر فى هذا الخطأ لأن الكتاب خرج إلى الناس خالياً من البيانات التى حرصت على وضعها باللغتين العربية والإنجليزية فى أصل الترجمة الذى قدمته للدار المصرية للتأليف والترجمة ، ثم أعدت كتابتها على تجارب المطبعة أثناء تصحيحى لها ، ورغم ذلك فقد خرج الكتاب بدونها !

ولو بقيت هذه البيانات لعلم الأستاذ أحمد محمد عطيه أنى لم أختر مقالات الكتاب ، ولم أحذف منها صفحات وفقرات وعبارات كثيرة كما اتهمنى – دون تثبت – فى عدة مواضع من مقاله ، وأن كتاب « الأدب والحياة » إنما هو فى حقيقة الأمر ترجمة دقيقة كاملة لكتاب إنجليزى قام باختيار مقالاته وكتابة مقدمته الناقد السوفييتى ف . ف . ميخايلوفسكى ، وترجمته من الروسية إلى الإنجليزية « إديث بون » ، ونشرته دار « هتشينسون للمؤلفين العالميين » بلندن عام ١٩٤٦ ، وليس دار النشر باللغات الأجنبية بموسكو كما ذهب الناقد وفيما يلى عنوان الكتاب وكافة بياناته باللغة الإنجليزية كما وردت فى صفحته الأولى :

Literature and Life
A Selection from the Writings of
Maxim Gorki
With an introduction by
V. V. Mikhailovski
Translated by Edith Bone
1946
Hutchinson International Authors
Limited
London; New York; Melbourne;
Sydney

لا صلة إذن بين هذا الكتاب الذى ترجمته ، وبين كتاب « صور أدبية » الذى صدر فى موسكو بعد ذلك ، وترجمه الصديق ألفريد فرج عام ١٩٥٧ اللهم إلا اشتراكهما فى الفصلين الخاصين بتولستوى وتشيخوف . ورغم هذا الاشتراك فالاختلاف بين الفصلين نفسيهما غير خاف نتيجة لاختلاف المترجمين عن الأصل الروسى .

وتقريراً للحقيقة أقرر أنى شرعت فى ترجمة كتاب « الأدب والحياة » ونشرت منه عدة فصول فى مجلة الإذاعة فى أوائل عام ١٩٥٧ قبل ظهور ترجمة الصديق ألفريد لكتاب « صور أدبية » ، وقد رجعت فى بعض هذه الفصول إلى الكتاب الأخير ، كما ترجمت منه الفصل الخاص بكورولنكو ، ونشرته على أربع حلقات ، وسمحت لنفسى بالحذف والتلخيص بما يتلاءم مع طبيعة قارئ المجلة الأسبوعية غير المتخصصة .

وقد اتضح لى من المقارنة بين الكتابين أن الترجمة الإنجليزية المنشورة فى لندن أرصن وأدق بكثير من ترجمة موسكو ، وتلك حقيقة يدركها كل من تمرس فى قراءة ترجمات الأدب الروسى . وواضح من مقال الأستاذ أحمد محمد عطيه أنه لم يسمع بكتاب « الأدب والحياة » فى أصله الإنجليزى ، ومن ثم كان تفضيله لترجمة الصديق ألفريد فرج فى الفصلين اللذين اشترك فيهما الكتاب مع



كتاب «صور أدبية» ، لأنه راجع ترجمة ألفريد على أصلها الإنجليزي . في حين ظلم ترجمتي حين راجعها على أصل آخر غير الذي ترجمت عنه .

غير أني إذا كنت قد التمست للناقد بعض العذر لخلو ترجمتي من البيانات الضرورية التي تعرف بأصل الكتاب الذي ترجمته ، فإني أرى أن هذه المقارنة نفسها بين ترجمة هذين الفصلين وأصلهما في كتاب «صور أدبية» كانت كفيلة بتنبيهه إلى أني قد اعتمدت على أصل إنجليزي آخر ، وذلك للاختلاف الواضح بين ترجمتي وبين ما يقابلها في «صور أدبية» ، فعلى سبيل المثال كيف يستطيع أن يتصور أن مترجماً يمكن أن يترجم old man التي ترجمها ألفريد «ياعجوز» بـ «يا بني» كما ترجمتها أنا ، أو fruit pastilles التي ترجمها ألفريد «باستيلياالفواكه» بـ «مربى البرتقال» ، أو cast an oblique glance التي ترجمها ألفريد «رماني بنظرة زائغة» بـ «نظر إلى مستفسراً» ، كيف يمكن أن يتصور السيد الناقد أن مترجماً مهما هان شأنه يمكن أن يسمح لنفسه بهذه الحرية الشديدة في التصرف في النص الأصلي حتى ليقلبه أحياناً إلى عكس المعنى المراد ؟ . ألا يدفعه هذا إلى الشك في اختلاف الأصل الذي ترجم عنه ؟ وإذا كانت ترجمة ألفريد أصح وأصدق بالنسبة للأصل الذي بين يدي الناقد لأنه ترجم عنها بالفعل ، فإن ترجمتي لنفس الفصلين لا تقل عنها دقة ولا صدقاً لأن الكلمة الأولى في نص كتاب «الأدب الحياة» هي my boy وليست old man ، كما أن الكلمة الثانيةيقابلهاعندى orange marmalade في حين أن أصل العبارة الثالثة هو looked askance at me

فإذا لم تكف مثل هذه الاختلافات الواضحة إلى تنبيه الناقد إلى اختلاف الأصلين ، ألم يقرأ ما قلته في هامش ص ٨٥ من ترجمتي من أن :

«هذه الفقرات محذوفة في الأصل الإنجليزي الذي ترجمنا عنه ، وكذلك كل الفقرات الأخرى المماثلة التي تعرض في مقالات تالية ، ولم نحذف من الكتاب سوى الفصل الأخير وهو فصل قصير عن الجيش الأحمر» .

هذه الملاحظة ألم تكن جديرة بأن تنبه الناقد إلى أني أترجم كتاباً بعينه لا يملك أصله بين يديه حتى يستطيع أن يحاسبني على ما حذفته منه أو أضفته إليه ، ومع ذلك فإني أحب أن أطمئنه إلى أني لم أحذف من الكتاب سطراً واحداً ، وحتى هذا الفصل الأخير الذي أشرت إليه في ملاحظتي السابقة ، والذي لا يتجاوز الصفحتين في الأصل الإنجليزي ، لم أحذفه إلا مضطراً بناء على رغبة المسئولين في قسم الترجمة بالدار المصرية للتأليف والترجمة ، إذ رأوا فيه دعاية سياسية صريحة ، وهم من هذه الناحية يتفقون مع رأي السيد الناقد الذي أورده في مقاله حين قال «وكان أحرى بالمترجم أن يستبعد هذا الجزء الدعائي المحض» . رغم ما في ذلك من تناقض مع لومه السابق لي على أساس ما تصوره من أني حذفت فقرات كثيرة من الكتاب . أما أنا فأختلف مع هذا الرأي ، وأرى أن الأمانة تقتضينا أن نقدم الكتاب كاملاً دون حذف من أي نوع ، وإذا كان لنا رأي يختلف مع بعض ما جاء فيه ، فمن حقنا أن نضيفه في هامش الترجمة دون أن نتدخل في صلب النص المترجم بأي صورة من الصور .

بقي عتاب صغير للناقد ، تدفعني إليه كلمات الثناء الطيبة التي أسبغها على شخصي في ختام مقاله . . فإذا كان هذا رأيه في كتاباتي ، ألم يكن من الأوفق أن يسألني عن الأصل الذي ترجمت عنه قبل أن يتورط في إلقاء اتهامات لا أساس لها ، خاصة وأنه — فيما علمت — ممن يترددون على مجلة «المجلة» التي أعمل بها ، وأؤكد له أني كنت على أتم استعداد لإعارته الأصل الإنجليزي للكتاب لكي يقوم نقده للترجمة على أساس سليم أفيد منه ويفيد القراء .

وهذا العتاب ينسحب جانب منه إلى الزملاء الأفاضل المشرفين على تحرير مجلة «الكتاب العربي» التي تصدر عن نفس الدار التي نشرت الكتاب ، وكان باستطاعتهم الاستفسار من المسئولين في قسم الترجمة عن جلية الأمر ، قبل نشر المقال .

ولا يفوتني أن أعترف بصحة التصويب الذي نبه إليه الكاتب في مقاله حول ترجمتي لعبارة my employer's brother بـ «مدرس أخي» ص ٦٧ ، وصحتها «شقيق صاحب العمل» ، ولعل مما يخفف من وزر خطئي أن الأصل الذي ترجمت عنه استخدم كلمة master بدلاً من employer ، وجل من لا يسهو ولا يخطئ . .

وأعود فأكرر شكري للأستاذ أحمد محمد عطيه على اهتمامه بالكتاب ، وحرصه على دقة الترجمة وأمانتها ، وإن كان قد جانبه التوفيق في مراجعة ترجمتي على أصل غير الأصل الذي ترجمت عنه فكان أن قام نقده ولومه على غير أساس .

فؤاد دوّاره

«المجلة» .. إن مجلة الكتاب العربي إذ تنشر رد الأستاذ فؤاد دوارة على ما نشر عن كتابه المترجم «الأدب والحياة» من نقد «تفتح صفحاتها لكل نقد جاد مستهدفة بذلك الوصول إلى الحقيقة الثقافية كاملة» أما فيما يتعلق بالجزء الخاص بعتاب المشرفين على تحرير المجلة . . لا يسعنا إلا أن نشكر للزميل الفاضل عتابه الرقيق . . راجين أن يقتنع بوجهة نظرنا في أن وسيلة الاتصال بين المجلة وبين كل القطاعات الثقافية وقرائها هي صفحات المجلة وحدها .